أحمد الشنتناوى

التنبؤ بالغيب

قديماً وحديثاً

اقرأ ٢٠١

دار المعارف بمصر

اهداءات ٢٠٠٢

المهندس/محمد إبراهيم شبابيك
الاسكندرية

إقرأ ٢٠١ - سبتمبر سنة ١٩٥٩

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر - ٥ شارع ماسبيرو - القاهرة

الفصل الأول

ما هو التنبؤ بالغيب

« وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يعلمها إلّا هُو وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إلّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » .

والغيب هو ما لا نعتمد فى إدراكه على إحدى الحواس فلا يدخل فى دائرته استنباط النتائج من مقدماتها ومعرفة المسببات من أسبابها بطريق الاستدلال ، وقياس ماغاب بما حضر ، كعلمنا شفاء المريض قبل حصوله إذا وجدنا العلاج ناجعاً ، وكثرة ثمار الأرض إذا رأينا النبات نامياً ، وسقوط أمة إذا ألفينا أبناءها متفرقى القلوب منغمسين فى اللهو والترف منصرفين عن الجد والعمل . كل ذلك وما أشبهه خارج عن دائرة علم الغيب أو التنبؤ بالغيب الذى هو موضوع هذا الكتيب .

والإنسان مولع منذ أن وجد على ظهر الأرض إلى اكتشاف الغيب ومعرفة ما يخفيه المستقبل من أحداث . وقد ظهر من بنى البشر فى كل عصر من العصور أناس ادعوا أن لهم القدرة على التنبؤ بالغيب وقراءة المستقبل ، وقد خلعت عليهم هذه القدرة

مهابة واحتراماً وتبجيلا بين الناس ، بل لقد أدنتهم هذه المقدرة من مراتب الأنبياء وسلكتهم فى عداد أولياء الله الصالحين .

ولم يقف هذا الميل أو الادعاء بالقدرة على كشف الغيب عند حد الأفراد بل تعداهم إلى الأمم والشعوب ؛ فقديماً برع الأشوريون فى التنبؤ بالغيب وذلك عن طريق ملاحظة الكواكب والأجرام السماوية فى مسالكها وقد مكنتهم سماؤهم الصافية من مراقبة حركاتها وقالوا إن لهذه الحركات دلالات على حظوظ الناس ومصائرهم . وقد أخذ الكلدانيون هذا العلم عنهم وواصلوا قراءة صفحة السماء ومشاهدة النجوم فى تحركاتها وأقاموا على ذلك كله علماً يمكنهم من التنبؤ بحظوظ الناس ومعرفة المصير الذى قدر لهم . ولقد كان للمصريين القدماء نصيب وافر من هذ العلم ورثوه عن أسلافهم خلال ماض سحيق يمتد إلى أجيال لا يكاد يحصيها العد .

أما الإغريق فكانوا لا يقدمون على أمر من الأمور إلا بعد التماس النصيحة من الآلهة واستشارة الكهنة الذين كانوا يدعون التنبؤ بالغيب .وكان علم الكهانة شائعاً عند العرب أيام الجاهلية إذ كانوا يطلقون لفظة كاهن على كل من ادعى علم الغيب ، أو تنبأ بشىء قبل وقوعه . وقد نبغ فيهم كثيرون من الكهان مثل

شق بن أنمار، وسطيح بن مازن، وطريفة الكاهنة، وزبراء الكاهنة وغيرهم .

وقد ورد فى الكتاب المقدس الشيء الكثير من التنبؤات على ألسنة بعض الأنبياء من أمثال إرميا وحزقيل . وقام نفر من العلماء يدرسون هرم الجيزة الأكبر من حيث دلالته على بعض التنبؤات ويؤكدون بالأدلة الحسابية الملموسة أن بعضها قد تحقق فى العصر الحاضر .

وكان التنبؤ بالغيب من الأمور الشائعة فى العصور الوسطى وظهر فى تلك العصور عرافون كثيرون تنبأوا بأمور كثيرة تحقق الكثير منها ، ولعل أشهر هؤلاء العرافين هو نستراداموس Nostradamus أحد علماء العصور الوسطى، وقد عاش فى القرن السادس عشر وكانت له تنبؤات كثيرة تحقق منها الجزء الأكبر. وقد شابت تنبؤاته الشيء الكثير من الغموض بسبب التواء أسلوبها ، فقد كتب هذا العالم تنبؤاته فى شكل أشعار رمزية لها دلالاتها الخاصة نذكر منها على سبيل المثال النبوءة التالية :

« سوف يغلب الأسد الصغير الأسد الكبير فى ساحة النزال بعد مبارزة واحدة . سوف يطعن ناظريه الموضوعين فى قفص من ذهب ، وبعدها يموت الأسد الكبير ميتة شنيعة » .

كان نستراداموس هذا معاصراً للملك هنرى الثانى ملك فرنسا . وفى يوليه من عام ١٥٥٩ احتفل الملك هنرى بزواج أخته مرجريت من دوق سافوى. وكان من بين برنامج الاحتفال إقامة مسابقة بالطعن بالرماح . وكان هنرى ماهراً فى اللعب بالرمح لذلك دعا أحد ضيوفه من الشبان وهو إيرل مونتجومرى من الحرس الاسكتلندى لمنازلته بالرماح . وقد اعتذر هذا الشاب عن هذا الشرف المحوط بالأخطار ولكن الملك أصر على ذلك . وفى خلال النزال اخترق رمح مونتجومرى خوذة خصمه الذهبية ودخل الرمح فى عين الملك اليمنى . وقد مات الملك هنرى الثانى بعد ذلك ميتة شنيعة مؤلمة .

وتنبأ وليم ليللى William Lilly المنجم الإنجليزى فى عام ١٦٥١ بالطاعون الذى اجتاح مدينة لندن عام ١٦٦٥ وبالحريق الذى دمرها عام ١٦٦٦ .

وكان تنبؤه من الدقة بحيث أنه تألفت بعد حريق لندن لجنة برلمانية لسؤال ليللى هذا عما إذا كان تنبؤه هذا مستمداً من معلومات أخرى غير ما أنبأته به النجوم والكواكب وذلك خشية أن يكون ذلك الحريق قد شب نتيجة مؤامرة من المؤامرات .

وبير Peare متنبىء إنجليزى آخر تنبأ فى عام ١٨٦٨ بأن

الملك چورج — وكان فى ذلك الوقت فى الثانية من عمره، وله من الإخوة ما يكبرونه سناً — سوف يصبح ملكاً لإنجلترا تحت اسم چورج الخامس ، وقد تحققت هذه النبوءة .

وتنبأ أحد الإنجليز فى عام ١٨٨٦ بأن عام ١٩١٧ سوف يكون على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لإسرائيل وبريطانيا . والمعروف أن اللورد اللنبي قد دخل فلسطين عام ١٩١٧ واستولى على القدس وأصبحت فلسطين تحت الانتداب البريطانى بعد أن ظلت تحت الحكم الإسلامى طوال ثلاثة عشر قرناً من الزمان وقد مهد ذلك لظهور دولة إسرائيل الحديثة .

وقد ظهرت قبل عام ١٩١٤ نبوءات كثيرة عن الأحداث الجسام التى حلت بأوربا فيما بين عامى ١٩١٤ و ١٩٢٠ وهى الفترة التى نشبت فيها الحرب العالمية الأولى . فقد تنبأ العراف ويتزر Weitzer فى أوائل القرن الحالى بأن السنوات الإحدى عشر من ١٩٠٩ إلى ١٩٢٠ سوف تكون ذات شأن خطير بالنسبة للقارة الأوربية ، كما تنبأ معظم العرافين والمنجمين بدون استثناء بحرب ضروس تشنها ألمانيا خلال الأعوام من ١٩١٣ إلى ١٩١٦. وفى عام ١٩٠٥ أى قبل نشوب الحرب العالمية الأولى بعشر سنوات تقريباً نشرت مدام تيبس Thebes العرافة الفرنسية المشهورة هذه

الكلمات فى التقويم السنوى الفرنسى :

« إن مستقبل بلجيكا محزن مظلم . إن هذه الدولة الصغيرة توحى بالرفاهية والسلام ولكنى أكرر كلماتى السابقة ، أن هذه البلاد سوف تشعل النيران فى أوروبا بأسرها » .

ونحن نذكر جميعاً كيف أغارت ألمانيا على بلجيكا فى الحرب العالمية الأولى على الرغم من معاهدة عدم الاعتداء التى كانت معقودة بينها وبين تلك الدولة، الأمر الذى أدى إلى نعت هذه المعاهدة بأنها « قصاصة ورق » وكان ذلك هو السبب الذى دفع إنجلترا إلى دخول الحرب العالمية الأولى .

وذكرت مدام تيبس فى طبعة سنة ١٩١٣ من ذلك التقويم ذاته ما يلى :

« إنى أرى بين أيدى كبار الإيطاليين دلائل تدل على حرب ضروس لم يحدث لها شبيه من قبل . إن ألمانيا تهدد أوروبا كلها بوجه عام وفرنسا بوجه خاص، ولكن الحرب إذا وقعت فسوف لا تحتفظ ألمانيا بعدها بمركزها الرفيع . وقد سبق أن أكدت مراراً أن أيام القيصر أصبحت معدودات، وسوف تحدث بعده تغيرات هائلة فى ألمانيا » .

وقد تنبأ بعض العرافين بموت اللورد كتشنر غرقاً وهو فى

السادسة والستين من عمره ، وأن مارك توين الروائى المشهور سوف يصبح ثرياً فى أواخر أيامه أى بعد الثامنة والستين من عمره، وهى كلها أمور تحققت عن آخرها فيما بعد .

ومجمل القول إن التنبؤات موجودة منذ أن وجد الإنسان . ونحن اليوم نسخر من النبوءات التى يطالعنا بها من حين لآخر بعض العرافين والمنجمين وإن كان الكثيرون منا يعتقدون فيها وإن لم يفصحوا عن هذا الاعتقاد خوفاً من أن يرميهم الناس بالسذاجة أو التأخر العقلى . وليس هذا بجديد فقد وجد على الدوام فى كل عصر من العصور أناس سخروا من هذه النبوءات وآخرون اعتقدوا فيها . ولعل مرد هذا أنه لم يوجد قط عراف أو منجم صدق كل الصدق فيما تنبأ به . كما نجد إلى جانب ذلك عرافين تنبأوا بأشياء لا يميل الناس عادة إلى تصديقها كهؤلاء الذين يتنبأون من وقت لآخر بقرب فناء العالم فكان مصيرهم السخرية والمقت ، بل إن بعض العرافين قد تنبأوا فى العهد القديم بفناء أو زوال قارة الأطلانتس (القارة المفقودة) فكان مصيرهم القتل .

والإنسان بطبعه ميال إلى الشك بل إن الشك عنصر من عناصر حياته العقلية، ومما زاد من شكه فى هذه النبوءات ظهور

بعض العرافين تنبأوا بنبوءات كاذبة لم يتحقق منها شيء، على أن هذه النبوءات الكاذبة لا يجب أن تقلل من قيمة النبوءات على الإطلاق، أو تكون مطعناً فى فن الكهانة: فما من فن إلا وكان حدس أهله عرضة للكذب. فإذا أخطأ الطبيب فى حدسه فإن ذلك لا يطعن فى فن الطب ولا يمكن كذلك أن نقول إن الملاحة ليست فناً لمجرد أن الكثيرين من الممتازين من قباطنة السفن قد تحطمت سفنهم وابتلعتهم المياه، وهل يفقد الفن العسكرى قيمته لأن قائداً طائر الصيت قد حلت به الهزيمة وفقد جيشه وولى الأدبار ؟

لقد ذكر العرافون كثيراً من النبوءات الصادقة، وتحفظ لنا كتب التاريخ الكثير من هذه النبوءات الصادقة التى تحققت عن آخرها وهذا يدعونا إلى التساؤل : من هو العراف ؟

هناك تعريف حديث يقول إن العراف هو شخص بعيد النظر الروحى فكما أن هناك فى العالم الطبيعى قصر نظر وبعد نظر فكذلك هناك بعد نظر روحى.

ويمكن أن نعرف التنبؤ بالاختصار بأنه قوة تمكن صاحبها من رؤية الأشياء والحوادث غير المنظورة، سواء فى الزمان أو فى المكان. والنبوءة لا تفيد عادة قائلها بشيء من الأشياء، بل كثيراً

ما أدت بعض النبوءات إلى استشهاد من قالوا بها .

ومما هو جدير بالذكر أن علماء البحوث الروحية، وكثيراً من علماء النفس يعتقدون اليوم فى تبادل الشعور والخواطر مع الغير وهو ما يعرف عندهم باسم « تلباثى » Telepathty ويرون فى التنبؤ بالحوادث المستقبلة حقيقة ثابتة لا يمكن إنكارها، وإن لم يجدوا لها تفسيراً تطمئن إليه النفس . وليس هذا مقصوراً على تبادل الشعور والخواطر والتنبؤ بالأحداث المستقبلة، بل هناك أيضاً حقائق علمية كثيرة لا نجد لها تفسيراً، أو أنها لم تفسر بعد التفسير الكافى المقنع .

إن كل ما نتمتع به اليوم من وسائل الراحة والرفاهية إنما هو ثمار آراء بدت فى أول أمرها غريبة مستنكرة ، وكم سفهت واستهزىء بأصحابها ورموا بالجنون وفساد الرأى فيما يذهبون، ولكن ما لبث ما كان بالأمس مزاعم باطلة أن صار اليوم حقائق ثابتة ذات ثمار يانعة فيها منافع للناس .

نحن لا نعرف اليوم على سبيل المثال ما هى الكهرباء وأن كل ما نعرفه عنها هو آثارها التى نشاهدها ، وكذلك الحال بالنسبة للأشعة الكونية أو القوة التى تتحكم فى الذرة وغير ذلك من الظواهر الكونية . لقد مضى الوقت الذى كانت تعتبر فيه

هذه الأشياء التى لا نجد لها تفسيراً من خوارق الطبيعة، ولكننا لا نميل اليوم إلى نعتها بأنها من خوارق الطبيعة، ولكنها أشياء طبيعية لم تفسر بعد .

إن من مظاهر تفكيرنا تلك الظاهرة التى نطلق عليها لفظ « المحال » فنحن نعرف أنه منذ أكثر من قرن من الزمان كانت بعض الأشياء المألوفة لنا اليوم تعد من الأمور المستحيلة . ألم تكن مبادىء نظريات الطيران والغواصات والراديو والتليفزيون آراء غريبة طالما سخر الناس من القائلين بها، محتجين إذ ذاك بأن تحقيق تلك الآراء مما يتنافى وسنن الكون وقوانينه الطبيعية .

فنحن نعرف أن المهندسين منذ أكثر من قرن من الزمان ، ذكروا أنه من المحال أن تجرى عربات حديدية ذات عجلات ملساء فوق خطين من الحديد وهى محملة بالأثقال دون أن تنزلق ، وأنه من المحال أن تجرى هذه العربات الحديدية بسرعة عشرين أو ثلاثين ميلا فى الساعة دون أن تتهشم أجسام البشر الذين يركبون هذه العربات أو تحدث لهم أشد أنواع الاضطرابات المخية والعصبية .

وكان القول بإمكان صعود الإنسان إلى القمر أو غيره من الأجرام السماوية فى مستهل هذا القرن يعد ضرباً من الخيال

لا يمكن تحقيقه ولكننا اليوم أصبحنا قاب قوسين أو أدنى من الصعود إلى هذه الأجرام السماوية بفضل هذه الصواريخ الجبارة التى هى من صنع الإنسان . إن عدد الأشياء التى نعتها الإنسان بأنها محالة تتفق وعدد المخترعات والمكتشفات الإنسانية .

إن عالماً ممتازاً مثل السير همفرى داڤى Humphry Davy قد سخر من الفكرة القائلة بأنه فى الإمكان إنارة مدينة كبيرة مثل لندن بمصابيح الغاز ، وأن أكاديمية العلوم الملكية البريطانية قد ماجت بأصوات السخرية والاستنكار عند ما أعلن أمامها بنجامين فرانكلين رأيه عن مانعة الصواعق . ومجمل القول إن الاعتقاد فى استحالة تحقيق الأشياء الصعبة أو غير المفهومة من العادات التى كونتها الإنسانية خلال تاريخها الطويل.

لقد كان هناك من سوء الحظ نبوءات كثيرة ظهرت خلال التطور البشرى لم يتحقق منها شىء ، وكان إلى جانبها نبوءات صادقة ولكنها كانت مع ذلك موضع الشك والسخرية شأنها فى ذلك شأن النبوءات الكاذبة .

إن الشك عادة عقلية مفيدة، ولكن كثيراً ما يساء استعماله فيكون ضرره أكثر من نفعه. وإنه على الرغم من الشك والسخرية فى محيط التكهن بالغيب فإن النبوءات ظاهرة قد تغلغلت فى

ضمير الإنسانية منذ آلاف من السنين ، ولم تقو أية قوة على محوها من ضمير الإنسانية . إن تعلق المرأة الحديثة — بل وكثير من الرجال — بالمنجمين والعرافين وضاربى الرمل والودع أمر يفوق الوصف . إن اعتقادنا فى النبوءات لا يمكن أن يموت شأنه فى ذلك شأن اعتقادنا فى كثير من الظواهر النفسية والأمور الروحية وإن عز علينا تفسيرها .

ومن أبسط الأمثلة التى يفسرون بها سبق النظر فى مجال الغيب، قولهم فلنتخيل قطار سكة حديد يسير حول جبل من الجبال ،ويقترب منه من الناحية الأخرى من الجبل قطار آخر يسير على نفس الخط الحديدى . وأن كلا من القطارين يسير بسرعة واحدة ولا يدرى أحدهما شيئاً عن الآخر . ولا يتلقى هذان القطاران أية إشارة للتوقف . والنتيجة الحتمية هى تصادم القطارين لأن كلا منهما جاهل بمصيره . وهناك رجل فى طائرة على ارتفاع بضعة آلاف من الأقدام فوق القطارين وهو مدرك تمام الإدراك لما سوف يحدث للقطارين فهذا واضح أمامه تمام الوضوح . ولو كان فى استطاعته الاتصال بالقطارين لأنبأهما بالكارثة التى تنتظرهما، اللهم إلا إذا اتخذ القطاران من الإجراءات السريعة المباشرة التى تحول دون وقوع هذه الكارثة . إن هذه القدرة

التنبؤية بسيطة غاية البساطة بالنسبة للطيار إنه فى حالة تسمح له بأن يرى ويدرك ويتنبأ . كذلك العراف هو فى حالة نفسية تسمح له بأن يرى أحداث المستقبل ويتنبأ بها .

والواقع أن التنبؤ بالغيب ظاهرة من ظواهر الحياة الإنسانية، حظها من البحث العلمى ضئيل بالمقارنة مع الظواهر الإنسانية الأخرى . لقد ضمت كثير من المؤلفات المنوعة شوارد مبعثرة من المعلومات المثيرة عن التنبؤات الصادقة والأخرى الكاذبة . وليس غرضنا من هذا البحث المقتضب أن نؤيد أو ننكر القدرة على التنبؤ بالغيب ، إنما غرضنا أن نجعل القارىء على دراية بموضوع من الموضوعات التى تثير اهتمامه وشغفه ثم نترك له بعد ذلك الحكم على الموضوع وفق ما يهتدى إليه عقله وإحساسه .

الفصل الثانى

التنبؤات فى العهد القديم

يصف أفلاطون التنبؤ بأنه « أسمى الفنون » وكان القدماء يمارسونه على نطاق واسع عن طريق أماكن الوحى المختلفة oracles فقد كان فى العهد القديم مراكز خاصة للتنبؤ يذهب إليها الناس لاستشارة الآلهة فيما ينوون القيام به من أعمال ، فتتحدث إليهم الآلهة على لسان الكهنة الموجودين فى كل مركز من تلك المراكز وبأسلوب خاص يتميز به كل مركز منها .

وكان الرأى أن هذا النوع من التنبوءات يعد ضرباً من الهذيان ، إذ كان يعترى الكهنة فى تلك المراكز التنبؤية نوع من الهذيان . فتنطلق ألسنتهم بأقوال تنبىء عما سيحدث فى قابل الأيام. وقد فسر سقراط هذا الهذيان بأنه هبة خاصة من السماء ومنبع أعظم النعم بين البشر . فقد أسبغت كاهنات دلفى ودودونا — وكانا من أهم المراكز التنبؤية فى بلاد اليونان القديمة — نعماً وفيرة على بلاد اليونان عند ما كان يعترى هؤلاء الكاهنات هذا الضرب من الهذيان فى حين أنهن لم يقدمن إلا القليل من هذه النعم وهن فى كامل وعيهن .

لقد كان هذا هو رأى أعظم حكماء اليونان فى هذه النبوءات الأمر الذى جعل جميع الإغريق يعتقدون فيها طوال مئات بل آلاف من السنين ، ويغمرون مذابح المعابد القائمة فى تلك المراكز التنبؤية بالهدايا والقرابين حتى إننا عند ما نقرأ اليوم عن وحى دلفى وما كان به من ساحات متسعة ونافورات ومعابد جميلة ،واستاده العظيم ومسرحه الفخم وتماثيله الرخامية العديدة والأخرى المصنوعة من البرنز بل ومن الذهب ، ورسومه التى أبدعتها ريشة الرسام الإغريقى الشهير بوليجنوتس Polygnotus لتضاءل أمام أعيننا جميع الكنوز المحفوظة الآن فى أكبر المتاحف العالمية .

لقد تجمع هذا الثراء العظيم فى بقعة واحدة من أرض اليونان لوجود كاهنة فى تلك البقعة تدعى « بيثيا » Pythia كانت تلوك بين أسنانها بعض أوراق شجر الغار وتستنشق الغازات التى كانت تنبعث من شق فى الصخر أسفل الكرسى الذى كانت تجلس عليه ، وتشرب من مياه نبع كاسوتس المقدس فتعتريها شبه غيبوبة وتهذى بكلام ينبىء عما سيقع من أحداث فى مستقبل الأيام .

كان الناس يلجأون إلى كاهنة دلفى هذه ويلقون إليها

بأسئلتهم فتأتيهم الإجابة وكثيراً ما تكون مشوشة وغير مفهومة بالنسبة للسائل فيتصدى لتفسيرها حاشية بيثيا من الكهنة الملازمين لها ويصيغونها فى أبيات مفهومة من الشعر المرسل . وإن ثراء وحى دلفى وشهرته الكبيرة التى طالت مع الزمن لدليل قوى على أن الناس فى ذلك العهد القديم كانوا يعتقدون فى صحة النبوءات التى تصدر عن هذا الوحى ، وأنها قد تحققت على مدى الأيام .

ولعل أقدم مراكز التنبؤ اليونانية هى وحى دودونا Dodona فى جنوب مقدونيا . وكان هذا المركز يقوم وسط مرج من أشجار البلوط . وكان الاعتقاد أن حفيف هذه الأشجار يحمل فى طياته إرادة الإله زيوس ومشيئته . وكان الكهنة بدورهم يقومون بتفسير هذه الأصوات التى تنبعث من أوراق هذه الأشجار ويعدونها الإجابة المنشودة عن الأسئلة التى كانت تنهال على كهنة هذا المركز من الوافدين إليهم من جميع أنحاء اليونان استنباء عما يخفيه عنهم القدر من أمور وأحداث .

والظاهر أن الآلهة كانت تتحشق المروج والأشجار وخاصة أشجار التوت والبلوط ونبات الطرفاء . وتذكر كتب التاريخ أن چان دارك تلك المسيحية العذراء كانت تستمع إلى هواتف عليا تأتى إليها من بين أشجار الغابة التى كانت ترعى فيها أغنامها

حتى أنها قد توسلت إلى جلاديها قبل إحراقها أن يذهبوا بها مرة أخرى إلى الغابة حتى تستمع إلى هذه الهواتف السماوية التى كانت تستمع إليها من قبل فى غابات موطنها دومرى Domremy من أعمال فرنسا .

ومهما يكن من الأمر فإن وحى دودونا هذا كان قديم العهد فى الوقت الذى أخذ فيه هوميروس يتغنى بأشعاره . وقد تجمعت حول هذا الوحى الكثير من الأساطير والأخبار ، منها أن جماعة من أهل مقاطعة بيوشيا اليونانية جاءوا لاستشارة هذا الوحى فأشارت عليهم كاهنته مرتيل myrtile بأن الأجدر بهم أن يفعلوا أكثر الأشياء نكراً ، فلم يسعفهم تفكيرهم فى تلك اللحظة بأكثر من أن يلقوا هذه الكاهنة فى دست ملىء بالماء المغلى وقالوا إنهم لم يجدوا أكثر من ذلك عملا يتسم بالجحود ونكران الجميل .

والواقع أن كثيراً من هؤلاء الكهنة والعرافين قد لاقوا مصيراً سيئاً أشبه بهذا المصير إما بسبب النبوءات التى قالوا بها ولم تلاق هوى فى نفوس سامعيها ، وإما بسبب عدم تحقق النبوءات التى قالوا بها .

وقد عثر الأثريون على بعض لوحات نقشت عليها بعض الأسئلة التى كان يوجهها الناس إلى وحى دودونا منها هذا السؤال :

« هل فقدت منى أغطيتى ووسادتى أم سرقها غريب ؟ » وسأل آخر : « هل أنا أبو هذا الجنين الذى سوف تضعه زوجتى نيلا nyla قريباً ؟ » وغير ذلك من الأسئلة التى تدور على هذا المنوال.

ويا حبذا لو كان فى مقدورنا أن نعرف ردود هذه الأسئلة ولكن المجموعات الكبيرة التى كانت تضم هذه النبوءات المختلفة والتى ظلت على قيد الوجود أكثر من ألفين من السنين قد اختفت نهائياً حوالى الوقت الذى استولى فيه الترك على مدينة القسطنطينية ولم يبق منها إلا بعض فقرات لا تغنى الباحث كثيراً فى هذا الموضوع .

ومجمل القول إن هذه النبوءات كانت من الأمور المعروفة فى العهد القديم . وكان يعتقد فيها كثير من الأمم المتحضرة وفى طليعتها اليونان التى كانت تضم أحكم حكماء العهد القديم من أمثال أرسطو وأفلاطون وسقراط . والمعروف أنه قد جاء على لسان كاهنة دلفى أن سقراط هو أحكم حكماء البشرية . وكان لهذا القول أثر عميق فى نفس سقراط .

ومما يذكر أن هذا الفيلسوف عند ما صدر الحكم الأثيم بموته قال :

« إنى لمغتبط بهذا الموت كل الاغتباط لأن الإله لم يعطنى

شارة عند ما برحت دارى ولا عند ما اعتليت هذه المنصة لأتولى الدفاع عن قضيتى ومن عادة الإله أن يعطى هذه الشارة كلما هددنى الشر » .

وهناك كلمة مشهورة يعزوها التاريخ إلى سقراط وهى : « إن هناك شيئاً إلهيا ذلك هو ما أطيعه دواماً وهو على الرغم من أنه لا يدفعنى إلى عمل ما فإنه كثيراً ما يمنعنى عن الإقدام على عمل بالذات » . ويروى عن سقراط أيضاً أنه رأى ذات يوم صديقه « أقريطون » وقد عصب عينه برباط فقال له مستفسراً : « ماذا دهاك يا أقريطون ؟ فأجابه هذا قائلا :

« بينما كنت أتجول فى الريف إذا بغصن شجرة منحن قد انطلق وأصاب عينى » فقال سقراط : « هذا معقول لأنك أبيت طاعتى عند ما أرسلت فى طلبك لتعود من حيث كنت، استناداً إلى النذير الإلهى الذى اعتاد زجرى » .

على أن اليونانيين فى ذلك العهد البعيد كانوا نزاعين أيضاً إلى الشك فى كل شىء كما هو شأننا اليوم . فنحن اليوم نشك فى كل شىء ونسخر من كل شىء ونطلب تفسيراً معقولا لكل شىء وكذلك فعل اليونانيون . على أن الكهنة فى مراكز هذه الهواتف الإلهية كانوا على جانب كبير من اللباقة والدهاء

وبعد النظر والحم تجارب منوعة فى شتى الأمور . وليس من شك مع هذا أن الكثير من هذه التنبؤات التى قالوا بها لم يتحقق، كما أن كثيراً منها كان على جانب كبير من الغموض والإبهام .

على أن هذا كله لا يفسر لنا ذلك النظام التنبؤى الذى ظل قائماً طوال آلاف السنين فى أكثر الأمم حضارة وتقدماً . لقد استشار الملوك والساسة هذه الهواتف فى أعقد المشاكل فى السياسة وشئون الدولة . وقد قال شيشرون خطيب الرومان الأشهر —وكان خصما عنيداً للتنبؤ فى مختلف فنونه — « إن مهبط الوحى فى دلفى ما كان يكثر زواره على هذا النحو ويشتهر إلى هذا الحد ويزدحم بالقرابين ، تقدمها الشعوب والملوك من كل صوب، لو أن الناس فى مختلف العصور لم يضعوا صدق نبوءاته موضع اختبار . والآن وقد تغير هذا منذ زمن طويل واضمحلت شهرته فى الوقت الحاضر إذ لم يعد له من بعد الصيت ما كان له قديماً ، فإنه ما كان يصيب هذه الشهرة فى ماضيه لو أنه كان غير خليق بالتقدير فى أعلى مراتبه . ومن الممكن أن تكون الأبخرة الأرضية التى كانت تضىء نفس كاهنة « بيثيا » بالإلهام الإلهى قد اختفت بالتدريج على مر الزمان ، كما جفت فيما نعلم أنهار واختفت من الوجود . بينما غير بعض الأنهار الأخرى بالانحراف

بالدوران مجراه » .

ولعل من أشهر نبوءات العالم القديم التى صدرت عن وحى دلفى هى النبوءة المتصلة بالملك قارون Croesus ملك ليديا . وكان هذا الملك من أغنى ملوك الأرض وكان يضرب بثرائه الأمثال فيقال أغنى من قارون . وقد حفظت لنا كتب التاريخ قصة هذه النبوءة التى قيلت لهذا الملك والرؤيا التى رآها وما كان من أمر تحقق النبوءة والرؤيا معاً .

اعتلى قارون هذا عرش بلاد ليديا بعد وفاة والده وبدأ يحكم وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره . وقد أغار قارون على جميع الولايات اليونانية فى آسية الصغرى، سواء ما كان منها تابعاً للأيونيين أو للأيوليين، وأخضعها جميعاً إلى سلطانه. ولم يكتف قارون بإرغام اليونانيين فى آسية الصغرى على دفع الجزية له، بل صمم على بناء أسطول ضخم يهاجم به اليونانيين من سكان الجزر، ولكنه أقلع عن تلك الفكرة نزولا على مشورة بعض الناصحين واكتفى بأن أصبح صاحب الكلمة العليا على جميع الدويلات التى كانت منتشرة فى آسية الصغرى .

وبعد أن حصل قارون على هذه الانتصارات كلها وبسط من سلطان ليديا أصبحت ساردس Sardis عاصمة ليديا موئلا

للمشاهير والعظماء، وأصحاب الفلسفة والمواهب الفنية فى جميع البلاد . وكان من بين هؤلاء الذين وفدوا على ساردس صولون المشرع اليونانى المشهور . فقد سن هذا المشرع نزولا عند رغبة الأثينيين مجموعة من القوانين لتطبيقها فى بلادهم ثم خرج بعد ذلك يجوب بلاد العالم فى رحلة استغرقت عشر سنوات متصلة . وكان الغرض الظاهر من هذه الرحلة هو الدرس والإطلاع ، أما هدفه الحقيقى فكان لتجنب ضرورة إلغاء أو إبطال هذه القوانين التى سنها . فقد كان الأثينيون لا يستطيعون أنفسهم عمل ذلك ؛ إذ آلوا على أنفسهم أن يحتفظوا بهذه الأنظمة القانونية التى وضعها صولون دون انتهاك طوال عشر سنوات .

وقد زار صولون عدة بلاد منها مصر ثم ذهب ، إلى ساردس عاصمة الملك قارون وهناك قابله الملك بالترحاب ودعاه للإقامة فى قصره . وبعد أيام من حضوره إلى القصر كلف قارون خدمه بأن يصطحبوا صولون ويطلعونه على خزائن ثروته ليرى ما بها من نفائس وتحف . ولما تم ذلك استدعاه قارون ووجه إليه الخطاب قائلا :

« ضيفى الأثينى ، إن صوت الشهرة يفصح عالياً عن حكمتك . ولقد سمعت الكثير عن أسفارك وأنك قمت بدافع

حبك للفلسفة بزيارة جزء كبير من العالم، الأمر الذى دفعنى لأن أعرف منك أى رجل من بين الذين شاهدتهم هو أسعد الناس فى رأيك » .

كان قارون يتوقع أن يكون هو أسعد البشر ، الأمر الذى دفعه إلى سؤال صولون هذا السؤال . ولكن صولون برهن بإجابته أنه من أنصار الحق وأنه يمقت التملق والمداهنة .

أجاب صول : « أظن أيها الملك أن تللوس الرجل الأثينى هو الشخص الذى يستحق أكثر من غيره أن نطلق علية لفظ السعيد » . وقد عجب قارون من هذا القول فسأله : « وعلى أى شيء أقمت هذا الادعاء ؟ » فأجابه صولون : « لأن تللوس هذا كان يعيش فى ظل حكومة عادلة، وكان له كثير من الأبناء الفضلاء المحبوبين . وقد رأى تللوس أحفاده ولم يمت أحد منهم فى حياته . وبعد حياة موفقة ناجحة احتفلنا بجنازته بكل مظاهر التشريف والتبجيل، إذ اشترك فى الدفاع عن وطنه ضد العدو، ووقع شهيداً فى ميدان الفخار والمجد . وقد دفنه الأثينيون حيث استشهد ، وأقاموا له احتفالا فخماً » .

وظل صولون يحكى من أمجاد تللوس هذا الشيء الكثير

ولكن قارون قاطعه لأنه رغب متلهفاً أن يعرف الشخص الذى يمكن أن ننعته بالسعيد بعد تالوس هذا، ولم يكن يشك قارون أن إجابة صولون سوف تنصب عليه هذه المرة .

أجابه صولون : « هما كليوبس Cleobis وبيتو Bito وهما أخوان من أهل أرجيف ، كانت ظروف حياتهما ملائمة، وقد اشتهرا بقوتهما البدنية الأمر الذى توجا من أجله بأكاليل الغار لفوزهما فى المسابقات العامة . ومما يحكى عنهما أنه إبان الاحتفال الذى أقيم للإله جينو حيث كان المفروض أن تحمل أمهما إلى المعبد على عربة تجرها الثيران . ولسبب ما لم تتمكن الثيران من القيام بعملها ، فما كان من هذين الشابين إلا أن وضعا نير العربة على أكتافهما، وسحبا العربة وعليها أمهما حتى باب المعبد لمسافة طولها نحو ستة أميال. وقد قاما بذلك أمام عدد جم من النظارة، وما أن انتهيا من تلك المهمة حتى اختتما حياتهما بشكل فريد سعيد . فقد دلل الآلهة فى هذه الحادثة على أن الموت نعمة تفوق نعمة الحياة . لقد أفصح الحاضرون عن إعجابهم بعمل هذين الشابين وامتدحوا قوتهم البدنية وتمنت النساء أن يكن فى مركز أمهما التى اغتبطت لهذا العمل الذى صاحبه المجد والفخار .

وقفت الأم أمام المذبح وابتهلت إلى الآلهة أن تخلع على

ولديها أحسن النعم التى يمكن أن يحصل عليها إنسان . وما أن انتهت الأم من ابتهالاتها وانتهت الجموع من تقديم القرابين حتى انتحيا الشابان مكاناً منعزلا بالمعبد ليأخذا قسطهما من الراحة بعد هذا العمل المجهد ، ولكنهما لم يقوما من مكانهما أبداً بعد ذلك إذ انتهت حياتهما عند هذا الحد. وكان من أمر أهل أرجيف أن أقاموا تمثالين لكليوبس وبيتو واحتفظوا بهما فى معبد دلفى على اعتبار أنهما شخصان يستحقان أعظم التقدير » .

وتلك فى رأى صولون وتقديره سعادة من الدرجة الثانية .

ظل قارون غير راض عما سمعه من صولون فوجه الكلام إليه قائلاً : « أيها الأثينى ، إنك تنظر باحتقار إلى مظاهر ثرائى بحيث وضعتنى فى مرتبة أدنى من مرتبة أشخاص مغمورين لا شأن لهم » . فقال صولون : « لا تنعت أي شخص بأنه سعيد إلا بعد أن تعرف طبيعة ميتته . إن أسباب السعادة ليست فى مستطاع أى شخص أن يحصل عليها جميعاً » وما إن سمع قارون هذه الكلمات من صولون حتى انصرف عنه عازفاً عن سماع رأيه فيه ؛ فخرج هذا المشرع الفيلسوف من قصر قارون آسفاً على مسلك هذا الملك ، الذى أبى أن يستمع لصوت الحكمة على لسان هذا المشرع العظيم .

وما إن رحل صولون حتى رأى قارون مناماً أزعجه أشد الإزعاج ، وكأنه عقاب حكمت به السماء نظير عجرفته وادعائه بأنه أسعد الناس جميعاً . رأى قارون فى منامه رؤيا تهدده بكارثة حرمته فيما بعد من ولده. كان لقارون ولدان: أحدهما أبكم، أما الآخر ويدعى أتيس Atys فكان يمتاز بتفوقه ونباهته . وكان مغزى الحلم الذى رآه قارون أن ولده أتيس سوف يموت بطعنة من سن رمح حديدى . هب قارون فزعاً من هذا الحلم وأخذ يقلب الأمر على جميع وجوهه . وكانت أول خطوة اتخذها أن قرر تزويج ابنه هذا ثم نحاه عن قيادة الجيوش الليدية التى قادها أتيس من قبل فى عدة حملات ، ثم نقل بعد ذلك جميع الرماح والنبال وغيرها من أدوات القتال من منازل الرجال إلى منازل النساء حتى لا تصيب واحدة منها ابنه ، إذ ربما تسقط عليه من مكانها المعلقة به .

وبينما كان قارون منهمكاً فى حفلات زفاف ابنه أتيس إذ جاء إلى ساردس أحد أفراد الأسرة المالكة فى فريجيا لاجئاً بعد أن ارتكب جريمة قتل . وقد حضر إلى قصر قارون طالباً من الملك حمايته . ولما سأله قارون فى أمره علم منه أنه يدعى أدراستوس وأنه قتل أخاه عن غير عمد فنفاه أبوه من البلاد . ولما كان قارون

على علاقات طيبة مع أسرة هذا اللاجىء، فقد فتح له أبواب قصره وبسط عليه حمايته .

وقد ظهر فى حوالى ذلك الوقت فى ميسيا Mysia بالقرب من أولمبوس خنزير برى هائل الحجم كان يهبط من الجبال بين الحين والآخر، ويفتك بمن يصادفه من أهل تلك البلاد . وقد هاجمه الأهالى أكثر من مرة ولكنهم لم يستطيعوا التغلب عليه . ولما عز عليهم الأمر استنجدوا بالملك قارون، وطلبوا إليه أن يرسل إليهم ولده على رأس جماعة من شباب ليديا، ومعهم عدد من كلاب الصيد لتخليصهم من هذا الحيوان المفترس . ولكن قارون تذكر الحلم الذى رآه فأرسل إلى أهل ميسيا يعتذر عن إرسال ولده، بحجة أنه قد تزوج حديثاً ولا يسمح له وقته بمصاحبة هذه البعثة المطلوبة . ولما سمع أتيس بذلك أسرع إلى أبيه قارون ورجاه أن لا يحرمه من هذه الفرصة التى تتيح له أن يظهر شجاعته أمام زوجه، وأمام مواطنيه بوجه عام . فأخبره أبوه خبر الحلم الذى رآه فأقنعه أتيس أنه لو كان قد رأى فى المنام أنه سيموت بوخزة قرن أو نحو ذلك لكان له العذر فى منعه من مصاحبة هذه البعثة . وأخيراً سمح له أبوه بالذهاب إلى ميسيا مع أفراد البعثة للقضاء على هذا الخنزير البرى المتوحش .

وكان من أمر قارون أن أحضر هذا اللاجيء الفريجي وطلب منه نظير إيوائه وبسط حمايته عليه أن يكون حارساً أميناً لابنه طوال مدة هذه البعثة . ولقد قبل ذلك هذا اللاجيء عن طيب خاطر .

خرجت البعثة إلى ميسيا وكانت تضم نخبة من شباب ليديا الماهرين فى الصيد والقنص ومعهم عدد من كلاب الصيد المدربة . وقد وصلوا إلى جوار أوليوس وبحثوا عن الخنزير حتى وجدوه فضيقوا عليه الحصار وهاجموه برماحهم . وحدث أن سدد ادراستوس رمحه نحو الخنزير ولكنه أخطأه وأصاب سن الرمح أتيس فقتله . وبذلك تحققت رؤيا قارون . وما إن علم قارون بمقتل ولده حتى أخذ يندب سوء حظه . وقد تقدم إليه ادراستوس طالباً منه أن يأمر بقتله لما اقترفته يداه . ولكن قارون أجابه قائلاً : « إنك لست مذنباً فقد ارتكبت ذلك عن غير عمد ، إن الإله الذى حذرنى من هذا الشر هو الذى قام به » .

وقام قارون بعد ذلك بدفن ولده باحتفال مهيب . وفى المساء تسلل أدراستوس الذى قتل أخاه ثم صديقه إلى قبر أتيس واخذ ينعيه وينعت نفسه بأنه أتعس البشر طرا ثم طعن نفسه بخنجر فخر صريعاً فوق قبر أتيس .

أمضى قارون السنتين اللتين أعقبتا وفاة ابنه فى حزن عميق . ولم يكن يشغل باله فى تلك الفترة إلا ازدياد عظمة الإمبراطورية الفارسيّة وعلى رأسها الملك كايروس بن قمبيز . أخذ قارون يتساءل هل يقدم على عمل يوقف به توسع هذه الإمبراطورية قبل أن تصبح خطراً يهدد دولته ، أم يترقب ما سوف تجيء به الأيام . وأخيراً صمم على استشارة مراكز الوحى فى اليونان والأخرى الموجودة فى ليبيا . وأرسل لهذا الغرض رسلا إلى دلفى ودودونا وبرانشيدا وتروفونيوس وأمفياروس وهى أشهر مراكز الوحى فى اليونان القديمة ، كما أرسل رسله إلى مركز الوحى الشهير فى صحراء ليبيا وهو المعروف باسم زيوس آمون .

وكان غرض قارون من ذلك أن يختبر صدق هذه الهواتف السماوية ثم يحصل منها بعد ذلك على رأى قاطع بخصوص حملة يوجهها لمقاتلة الملك كايروس والقضاء على دولته . وزود قارون رسله بتعلياته وهى أن يسألوا هذه المراكز فى اليوم المائة من رحيلهم من ساردس عما يفعله الملك قارون فى ذلك اليوم ويدونوا ذلك كتابة ثم يخبرونه به بعد عودتهم إلى ساردس . ولم يحفظ لنا التاريخ الإجابات التى ذكرتها هذه المراكز التنبؤية ؛ وكل ما يعرف أن رسل قارون ما إن دخلوا معبد دلفى فى اليوم المحدد

وتقدموا بسؤالهم لكاهنته بثيا حتى أجابت :

إننى أحصى الرمال وأكيل البحار
وأسمع الأبـــكم والأصم صـــوتى
والآن يتصاعد إلى أنفى رائحة
سلحفاة وشاة فى قـــدر يغليان
حيث نحاس من أسفل ومن أعلا نحاس

ولما عاد الرسل إلى ساردس وأخبروا الملك بالإجابات التى سمعوها من هذه المراكز المختلفة وجد أنها غير مرضية ، ولكن ما أن سمع إجابة وحى دلفى حتى صاح بأن هذا هو ما كان يفعله فى ذلك اليوم المحدد : لقد عمد قارون فى ذلك اليوم إلى صنع شىء لا يخطر على بال أحد فقد أخذ سلحفاة وشاة وقطعهما إرباً ثم وضعهما فى قدر من النحاس له غطاء من النحاس وأشعل النيران تحت القدر فأخذ يغلى بما فيه . وعزم قارون بعد ذلك على أن يستحوز على عطف ورضاء إله دلفى عن طريق تقديم القرابين العظيمة . وتذكر كتب التاريخ أنه قدم من جميع الحيوانات الصالحة للقرابين ثلاثة آلاف رأس من كل منها ، كما أنه أحرق عدداً كبيراً من غالى الثياب والرياش المحلاة

باللآلىء ونفيس الأحجار الكريمة على أمل أن ذلك كله سوف يكسبه عطف ومناصرة إله دلفى كما طلب من الليديين أن يقدم كل منهم ما يملك قرباناً لهذا الإله .

وبعد أن انتهى قارون من تقديم هذه القرابين حتى أذاب قدراً كبيراً من الذهب وصنع منه قواعد للتماثيل طول الواحدة منها ستة أشبار وعرضها ثلاثة أشبار ، وارتفاعها شبراً ،وبلغ عددها ١١٧ قاعدة . وكان أربع من هذه القواعد من الذهب الخالص أما الباقية فكانت من خليط الذهب والفضة ، كما صنع تمثالا لأسد من الذهب الخالص حمله على هذه القواعد .

ولما أتم قارون صنع هذه الأشياء كلها أرسلها إلى دلفى ومعها أكثر من ذلك، قدرا ن كبيران إحداهما من الذهب والأخرى من الفضة،وضعت الذهبية منها إلى يمين الداخل إلى المعبد والفضية إلى يساره. وأرسل قارون أكثر من ذلك،أربع قوارير فضية لحفظ الخمور واثنتين لحفظ ماء الطهور احداهما من الذهب والأخرى من الفضة وغير ذلك من نفيس التحف والهدايا .

وطلب قارون من الرسل الذين حملوا هذه الهدايا إلى معبد دلفى أن يسألوا وحى دلفى هذا السؤال : « هل يخرج قارون لملاقاة الفرس ؟وأذا كان الأمر كذلك،فهل سيتحالف معه غيره

فى سبيل تحقيق هذا الغرض؟» وكانت الإجابة التى تلقاها كما يلى : «إذا خرج قارون لمحاربة الفرس فإنه سيقضى على إمبراطورية عظيمة» . كما تضمنت الإجابة توصية بالتحالف مع أقوى الدويلات اليونانية .

ولما سمع قارون هذه الإجابة فرح غاية الفرح على أمل أنه هو الذى سيقهر كايروس ويقضى على دولته . لقد فسر قارون هذه النبوءة وفق هواه فعمل على إيجاد تحالف دفاعى بينه وبين كثير من الدويلات اليونانية؛وكذلك بينه وبين المصريين ، ثم خرج بعد ذلك لمحاربة فارس . وقد حذره بعض عقلاء القوم من مغبة هذه الحملة لأنه لو انتصر على الفرس فسوف لا يجنى شيئاً من هذا الانتصار أما إذا لحقت به الهزيمة فسوف يفقد كل شيء، ولكن قارون اختار الحرب وكانت النتيجة أن لحقت به هزيمة منكرة . فقد اجتاح الفرس مدينة ساردس عاصمة ليديا بعد أربعة عشر يوماً من بدء القتال ووقع قارون نفسه فى الأسر .

وقد أمر كايروس ملك الفرس بأن يحرق قارون على كومة هائلة من الحطب . وبينما هو واقف على هذه الكومة فى انتظار مصيره المحزن وإذا به يخرج من بين ضلوعه أنات عميقة ويهتف

ثلاث مرات قائلا : صولون ، صولون ، صولون . فقد تذكر للتو قول صولون بأنه لا يصح أن ننعت أى شخص بأنه سعيد إلا بعد أن نعرف طبيعة ميتته . وقد أحب كايروس الملك المنتصر أن يعرف ما يقصده قارون من مناجاة هذا الشخص الذى يسمى صولون، ولكن قارون ظل صامتاً فترة من الوقت لا يحير جواباً ولما أرغم على الكلام ذكر قصته مع صولون المشرع الأثينى وأن المال فى واقع الأمر لا يمكنه بحال أن يسعد صاحبه .

وبينما كان قارون يقص على السامعين قصته مع صولون إذا بالنيران قد اشتعلت فى كومة الحطب التى سيحرق عليها قارون هو واثنى عشر شاباً من أبناء ليديا . ويقال إن كايروس بعد أن سمع هذه القصة من قارون رأى أنه من الجهل والغباء أن يقدم للنيران رجلا لم يكن أقل منه جاهاً وثراء، وخشى أن يحل به هو نفسه فى يوم من الأيام ما حل بقارون، إذ ما من شىء يملكه الإنسان له صفة الدوام والبقاء ولذلك أمر بأن تطفأ النيران بأسرع ما يكون وأن ينزل قارون من فوق منصة الإحراق هو ومن معه؛ ولكن الجند لم يستطيعوا التحكم فى النيران التى كان قد استعر أوارها فى تلك اللحظة .

وتذكر كتب التاريخ أن قارون لما علم أن الملك كايروس

قد غير من رأيه وأن كل فرد من الحاضرين يحاول إطفاء النيران دون جدوى ابتهل إلى الإله أبولو أن يهب لنجدته وتخليصه من هذا البلاء المحيط به إذا كان قد تقبل منه أية هدية أو قرباناً من القرابين التى قدمها إليه . وكان الدمع يهطل من عينى قارون وهو يتوسل إلى هذا الإله . وفجأة تغيم السماء بعد أن كانت صافية وتهب العاصفة وتنهمر الأمطار فتخمد كومة الحطب التى كان سيحرق فوقها قارون .

ولما شاهد كايروس ذلك أدرك أن قارون من الرجال الورعين المتعلقين بالآلهة لذلك أدناه منه وسأله : « أخبرنى يا قارون من الذى حرضك على الخروج ضدى وبهذا أصبحت عدواً لى بدل أن تكون صديقاً ؟ » فأجابه قارون : « أيها الملك إننى صنعت ذلك لحظى التعس ولطيبة نفسك المتناهية، فقد دفعنى إلى ذلك الإله الذى استشرته، فليس من أحد هو من البلاهة وعدم الحس والتقدير بحيث يؤثر الحرب على السلام، فى وقت السلم يدفن الأبناء آباءهم أما فى الحرب فيدفن الآباء أبناءهم » .

ومهما يكن من الأمر فإن قارون قد علم أنه بخروجه لقتال الفرس فإن دولة كبرى سوف تنهار — كما وعدت بذلك النبوءة — وإن كان الذى حدث هو انهيار إمبراطوريته .

هذا ولم تكن النبوءات محصورة فى اليونان وحدها بل كانت معروفة أيضاً فى مصر ، بل هى فى مصر أقدم تاريخاً منها فى اليونان. فوحى آمون رع فى مصر يرجع تاريخه إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد وكان به طيف يمثل الإله يتحدث إلى الناس ، ويقبل منهم الأسئلة ويجيب عنها ، ويقال إن الإسكندر الأكبر عند ما زار معبد آمون رع فى صحراء مصر خرج إليه هذا الطيف وخاطبه قائلاً : « إننى أعدك بأنك سوف تملك البلاد جميعاً وتخضع لك جميع الأديان » .

واشتهر أيضاً فى البلاد المصرية وحى هليوبوليس ، وكان الناس يفدون إليه فى كل بلد لاستشارة كهنته فى أهم أمورهم. والمعروف أن الإمبراطور الرومانى تراچان أرسل قبل أن يشترك فى حرب برثيا وفداً إلى هذا المركز التنبؤى لاستشارة كهنته فى مصير هذه الحرب . وتذكر التواريخ أن الكهنة أجابوا إجابة صامتة ، وذلك بأن أرسلوا إلى تراچان غصن كرم مكسور دون أى تعليق أو شرح . وقد قتل هذا الإمبراطور فى هذه الحرب وحمل جثمانه إلى روما . وعند ذلك تذكر الناس نبوءة وحى هليوبوليس وقالوا لو كان تراچان يعتقد حقاً فى هذه النبوءات لما أقدم على هذه الحرب بعد أن وصله هذا الغصن المكسور .

والظاهر أن أخبار النبوءات الغامضة هي التي وصلت إلينا دون النبوءات الواضحة . والواقع أنه كانت هناك نبوءات صادقة كثيرة قدمت لأفراد كثيرين ولكن لم يهتم أحد بتسجيل هذه النبوءات الشخصية بعكس الحال مع النبوءات السياسية الكبرى التي كان يسعى إليها الملوك والحكام .

ومهما يكن من الأمر فقد ظلت هذه النبوءات قائمة أجيالا طويلة وكانت معروفة أيضاً في العهد المسيحي حتى أن ترتوليان أحد آباء الكنيسة في القرن الثالث الميلادي قد أعلن أن العالم لا يزال مزدحماً بالنبوءات . وكانت الحياة الرومانية مليئة بهذه النبوءات وخاصة ما كان منها متصلا بحياة القياصرة وأعمالهم وهذا هو السبب في اهتمام بعض المؤرخين بهذه التنبؤات .

فقد تنبأ العراف سبورينا Spurinna بما حدث ليوليوس قيصر في اليوم الخامس عشر من شهر مارس . وحذره من خطر عظيم لا يمكن رده سوف يقع في ذلك اليوم . وقد رأت كالبورينا زوجة يوليوس قيصر في منامها حلماً تشاءمت منه غاية التشاؤم ؛ إذ رأت أن برج منزلها قد تهدم وأن زوجها قد طعن وهو بين ذراعيها . وكان يوليوس قيصر يشعر بالمرض فآثر المكوث في منزله في ذلك اليوم المشئوم يوم ١٥ مارس سنة ٤٤

قبل الميلاد . غير أن صديقه بروتس ذكر له أن جمعاً غفيراً من أعضاء مجلس الشيوخ ينتظره بالمجلس فلا يصح له أن يخيب آمالهم .

وفى أثناء الطريق إلى مجلس الشيوخ قابل قيصر العراف سبورينا وكان الوقت إذ ذاك حوالى الحادية عشرة صباحاً . فما إن رآه يوليوس قيصر حتى ابتسم له قائلا : « ها قد حل اليوم الخامس عشر من شهر مارس ولم تحدث أية كارثة » فأجابه سبورينا « نعم قيصر ولكن لم يمض بعد هذا اليوم » .

وكلنا نعرف أنه لم تغرب شمس ذلك اليوم إلا وكان يوليوس قيصر قد انتقل إلى العالم الآخر إثر طعنة نجلاء تلقاها من يد صديقه بروتس . وقال الناس فى ذلك الوقت لو كان يوليوس قيصر يعتقد حقاً فى هذه النبوءات لما اغتيل فى يوم ١٥ مارس .

وكان من الطبيعى أن تعنى القياصرة بعد ذلك بهذه التنبوءات فقد لجأوا إلى مراكز الوحى المختلفة يستنبئونها الغيب فى أوقات الحرب وفى أوقات السلم وفى كل أمر ذى شأن .

وكان بعض مشاهير الرومان لهم القدرة على التنبؤ بالغيب نذكر منهم فيجولوس Figulus أحد أعضاء مجلس الشيوخ

بروما . فقد كان هذا الرجل يعد فى نظر معاصريه أعلم الناس بالتنجيم . واتهمه البعض أنه من المشتغلين بالفنون الخفية . ويذكرون أنه شاهد ذات يوم اكتاڤيوس وقد جاء إلى مجلس الشيوخ متأخراً بعض الوقت فلما سأله فى ذلك علم منه أنه ولد له ولد فى ذلك اليوم فصاح فيجولوس قائلا : « لقد قدمت إلينا سيداً حاكماً » . ولقد اكتأب اكتاڤيوس عند سماعه هذا لأن الرومانيين فى تلك الأيام كانوا لا يزالون يرون أنهم أمة ديمقراطية لذلك فكر اكتاڤيوس أن يقضى على هذا الوليد ولكن فيجولوس نصحه أن لا يقدم على ذلك لأنه من المحال أن يغير اكتاڤيوس من المصير المحتوم .

ولقد لعبت النبوءات دوراً هاماً فى حياة أوغسطس ولد اكتاڤيوس، ففى الوقت الذى كان فيه اكتاڤيوس على رأس جيش فى تراقيا لم يفته أن يستشير الوحى هناك عن مصير ابنه . وبينما هو فى المعبد يصب الخمر على المذبح وإذا بألسنة النيران تغمر المعبد وترتفع إلى عنان السماء . وأخبر كهنة المعبد اكتاڤيوس أن حادثاً مثل هذا قد وقع مرة واحدة وذلك عند ما كان الإسكندر الأكبر يقدم القرابين عند المذبح .

ويقال إن تيوچينس المنجم الرومانى المشهور قد رغب فى

قراءة طالع الطفل أوغسطس . فما إن ذكر الطفل تاريخ مولده حتى هب تيوچينس من فوق مقعده وركع عند قدمى هذا الطفل. وكان أوغسطس من ناحيته يعتقد فى صدق طالعه ولذلك ما أن بلغ التاسعة عشرة من عمره حتى غادر المدرسة واعتلى عرش أكبر إمبراطورية معروفة فى ذلك الوقت .

ولقد حذر وحى دلفى الإمبراطور نيرون من الرقم ٧٣ . ولقد فسر هذا نيرون بأنه سوف يحكم حتى يبلغ الثالثة والسبعين من عمره ولكن الواقع أن هذه الإشارة كانت تشير إلى حكم خلفه الإمبراطور جلبا الذى حكم عدة أشهر وكان وقتذاك فى الثالثة والسبعين من عمره .

وقد دمر نيرون وحى دلفى إبان ثورة من ثوراته الجنونية ، لأنه رأى فى وجوده إنتقاص لسلطانه ، وقد خشى أن يظن الناس أن أبولو إله دلفى أعظم من نيرون .

الفصل الثالث

التنبؤ بالغيب عند العرب

كانت الكهانة شائعة عند العرب أيام الجاهلية ؛ فكان هناك الكهان والعرافون ، وإن كانوا أحياناً يفرقون بين الكهانة والعرافة ؛ فيقولون إن الكهانة مختصة بالأمور المستقبلة ، أما العرافة فخاصة بالأمور الماضية . ومهما يكن من الأمر فإن المراد بهما هو التنبؤ واستطلاع الغيب . وكان العرب يعتقدون أن للكاهن القدرة على كل شيء ، فكانوا يستشيرونه فى كل أمر جلل من أمورهم ويتقاضون إليه فى خصوماتهم ، ويستطبونه فى أمراضهم ويستفتونه فى ما أشكل عليهم ؛ ويطلبون منه تفسير رؤاهم ويستنبئونه عن مستقبلهم . ولهذا كله كانت منزلة الكاهن عندهم فى أعلا المراتب ؛ والكهان عندهم هم أهل العلم والفلسفة والطب والقضاء والدين ، وكان هذا هو شأن الكهان جميعاً فى سائر الأمم القديمة .

والرأى أن الكهانة ليست أصيلة عند العرب بل جاءتهم من بعض الأمم المجاورة وأغلب الظن أن الكلدانيين هم الذين نقلوا الكهانة إلى بلاد العرب مع ما نقلوه إليها من علم التنجيم . ومما يؤيد ذلك أن الكاهن يسمى فى العربية أيضاً « حازى » أو

« حزّاء » وهو لفظ كلدانى معناه الناظر أو الرائى أو البصير ، وهو يدل عندهم على الحكيم والنبي . وقد اقتبس العرب بعد ذلك لفظ الكاهن من اليهود الذين نزحوا إليهم على أثر ما أصابهم من النكبات فى أورشليم وخصوصاً بعد أن دمرها طيطس عام ٧٠ للميلاد .

والكهانة بوجه عام تطلق على أنواع مختلفة من التنبؤ بالغيب ، لأنها تشمل الناظرين فى الأجسام الشفافة من المرايا وطساس الماء وقلوب الحيوان وأكبادها وعظامها وأهل الطرق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى ، وأهل الزجر والفأل ، والمنبئين عن الغيب باستنباء الطيور والسباع ، وأهل الرياضة السحرية وأصحاب الفراسة ونحوهم .

وقد جعل العرب الكهانة على أصناف : منها ما يتلقونه من الجن ، فإن الجن كانوا يصعدون إلى جهة السماء فيركب بعضهم بعضاً إلى أن يدنو الأعلى بحيث يسمع الكلام فيلقيه إلى الذى يليه ، إلى أن يتلقاه من يلقيه فى أذن الكاهن فيزيد فيه. فلما جاء الإسلام ونزل القرآن حرست السماء من الشياطين وأرسلت عليهم الشهب ، فبقى من استراقهم ما يتخطفه الأعلى فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب . وإلى ذلك يشير الله تعالى بقوله : « إلا من

خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب » .

والصنف الثانى ما يخبر به الجنى من يواليه بما غاب عن غيره مما لا يطلع عليه الإنسان غالباً، أو يطلع عليه من قرب منه لا من بعد . والثالث ما يستند إلى ظن وتخمين وحدس . والصنف الرابع ما يستند إلى التجربة والعادة فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك .

ويقولون إن الصنف الأول قد بطل بمجيء النبى صلى الله عليه وسلم وحرم الكهان بعد بعثة النبي من كشف الغيب . وقد جاء فى بعض الروايات أن لا كهانة بعد النبوة : فلا يجوز تصديق الكهنة والإصغاء إليهم ، لأن هذا من دلالات الكفر . وجاء فى الحديث : « من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد » . ويقولون عن الصنف الثانى إنه لا يبعد وجوده .

وقد أفاضوا الكلام عن الصنف الرابع الذى يستند إلى التجربة والعادة وقالوا إن هذا نظير الأسباب التى يستدل بها الطبيب والفلاح والطبائعى على أمور غيبية بما تقتضيه تلك الأدلة مثال الطبيب إذا رأى الجرح مستديراً حكم بأنه عسر البرء ، وإذا رآه مستطيلا حكم بأنه أسرع برءاً . وكذلك ما علم به الربان من أمور تحدث فى البحر والريح بعلامات تدل على ذلك من

طلوع كوكب أو غروبه أو علامات أخرى فيقول يقع مطر أو يحدث ريح كذا ، أو يضطرب البحر فى مكان كذا ووقت كذا. وكذلك الفلاح يرى علامات فيقول هذه الشجرة يصيبها كذا وتيبس فى وقت كذا ، وهذه الشجرة لاتحمل العام وهذه تحمل.

وذهبوا أكثر من ذلك فقالوا إن هذا أمر لا يختص بالإنسان بل كثير من الحيوان يعرف أوقات المطر والصحو والبرد وغيره كما جاء فى كتب الحيوان . والفرس الردىء الخلق إذا رأى اللجام من بعيد نفر وجزع وعض من يريد أن يلجمه علماً منه بما يكون بعد اللجام . وهذه النملة إذا خزنت الحب فى بيوتها كسرته نصفين علماً منها بأنه ينبت إذا كان صحيحاً وأنه إذا انكسر لا ينبت . والقط يدفن أذاه ويغطيه بالتراب علماً منه بأن الفأر تهرب من رائحة فيفوته الصيد، ويشمه أولا فأن وجد رائحته شديدة غطاه بحيث يوارى الرائحة والجرم، وإلا اكتفى بأيسر التغطية . وهذا الأسد إذا مشى فى لين سحب ذنبه على آثار رجليه ليغطيه علماً منه بأن المار يرى مواطىء رجليه ويديه .

وجاء فى كتب التاريخ أن الكهان العرب قد عرفوا نبأ سيل العرم قبل وقوعه ونصحوا أولى الأمر فى البلاد بالعمل على اتقاء شره . وكان هذا فى عهد عمرو بن عامر الذى تولى رياسة ولد

قحطان . إذا كان أخوه « عمران » كاهناً عقيما وزوجته « ظريفة الخير » كاهنة من حمير ، فرأى عمران أن قومه سوف يمزقون كل ممزق فأنبأ أخاه بما رأى فى كهانته ، وكان هذا أول نبأ عرف عن سيل العرم . وبينا كانت ظريفة الخير نائمة ذات يوم إذ رأت سحابة غشيت أرضهم فأرعدت وأبرقت ، ثم هوت إلى الأرض فلم تصب شيئاً إلا أحرقته . ففزعت ظريفة لذلك وأدركها رعب شديد وأتت زوجها الملك وهى تقول إن ما رأته قد أذهب عنها النوم إذ رأت غيما أبرق وأرعد طويلا ، ثم أصعق فما وقع على شيء إلا احترق فما بعد هذا إلا الغرق .

فلما رأوا ما داخلها من الروع سكنوا من جأشها حتى ثابت إلى نفسها . ثم دخل زوجها إحدى حدائقه ومعه جاريتان ، فبلغها ذلك ، فأمرت وصيفاً لها أن يتبعها ، وانطلقت إلى زوجها حيث كان ، فاعترضتها ثلاث مناجذ — وهى دواب باليمن — منتصبات على أرجلهن ، واضعات أيديهن على أعينهن ، فأخفت ظريفة عينها وجلست ، وطلبت إلى وصيفها أن يبلغها متى انصرفت هذه المناجذ ، فلما أبلغها ذلك ، انطلقت مسرعة إلى زوجها ، فاعترضها خليج الحديقة ووثبت منه سلحفاة وانقلبت على ظهرها ، وحاولت أن تعتدل على غير جدوى ، فاستعانت

بذنبها وحثت التّراب على بطنها وجنبها وقذفت بولا . فهوت الكاهنة إلى الأرض حتى إذا عادت السلحفاة إلى الماء ، انطلقت ظريفة إلى زوجها فى الحديقة ، وكان النّهار قد انتصف واشتد حره فإذا الشجر يتكفأ من غير ريح . فلما أقبلت على زوجها ، ألفت الجاريتين على الفراش فاستحيا زوجها حين رآها ، وأمر الجاريتين بمغادرة الفراش لتأخذ زوجه مكانهما فكهنت هذه وقالت : « والنور والظلماء والأرض والسماء ، إن الشجر لتالف ، وليعودن الماء كما كان فى الدهر السالف » فسألها عمن أنبأها بذلك ، فقالت : « أخبرتنى المناجذ ، بسنين شداد يقطع فيها الولد والوالد » . قال ما تقولين ؟ قالت : « أقول قول الندمان لهفا ، قد رأيت سلحفا ، تجرف التّراب جرفاً ، وتقذف بالبول قذفا ، فدخلت الحديقة ، فإذا الشجر يتكفأ » قال عمرو وما ترين ذلك ؟ قالت : « هى داهية ركيمة ، ومصيبة عظيمة ، بأمور جسيمة » قال وما هى ويلك ؟ قالت « أجل أن لى فيها الويل ، وما لك فيها من نيل ، فلى ولك الويل ، مما يجىء به السيل » فألقى نفسه عن الفراش وقال لها : ما هذا يا ظريفة ؟ قالت : « هو خطب جليل ، وحزن طويل ، وخلف قليل » قال عمرو وما علاقة ما تذكرين ؟ قالت : « اذهب إلى السد فإذا رأيت جرذا

(فأراً) يكثر بيديه فى السد الحفر ؛ ويقلب برجليه من الجبل الصخر ، فاعلم أن الحفر حُفِر ، وأن قد وقع بنا الأمر » .
قال وما هذا الأمر الذى يقع ؟ قالت : « وعد من الله نزل ، وباطل بطل ، ونكال بنا نكل ، فبغيرك يا عمرو فليكن الثكل »
فانطلق عمرو إلى السد يحرسه ، فإذا بفأر يقلب برجليه صخرة لا يقوى على قلبها خمسون رجلا . . ! فكر إلى زوجته ، وأنبأها الخبر وهو يقول :

أبصرت أمراً عادنى منه ألم ... وهاج لى من هوله برح السقم
من جرذ كفحل خنزيز الأجم ... أو تيس صرم من أفاريق الغنم
يسحب صخرا من جلاميد العرم ... له مخاليب وأنياب قضم
ما فاته سحبا من الصخر قضم ... كأنما يرعى خضيرا من سلم

فقالت ظريفة إن من شواهد ما أنبأتك به ، أن تأخذ مجلسك بين الجنتين ثم تأمر بزجاجة توضع بين يديك فإن الريح تملأها من تراب البطحاء ، مع أن الجنان مظللة ، لا تدخلها شمس ولا ريح . . . ! فلما فعل امتلأت الزجاجة بعد قليل من تراب البطحاء ، فانطلق إليها وأنبأها بما جرى ، وسألها : متى ترين هلاك السد ؟ . . قالت : فى سبع سنين . قال ففى أيها

يكون ! . . . قالت لا يعلم هذا غير الله ، ولو أوتى أحد علم ذلك لكتمه ، ولا تأتى عليك ليلة طوال السنين السبع ، إلا ظننت أن السد يبيد فى غدها أو فى أثنائها . ورأى عمرو فى منامه سيل العرم ، وقيل له إن آية ذلك أن ترى الحصباء قد ظهرت فى سعف النخل ، فلما استيقظ تحقق من صدق ما رأى ، فأدرك أن البلاء واقع والخراب نازل . فكتم الأمر واعتزم التخلص من ممتلكاته ، وانتوى الهجرة مع ولده من أرض سبأ ، ولكنه خشى أن يفتضح أمره ، فيستنكر الناس تصرفه ، فاحتال للأمر حتى أهانه ابنه وضربه ابنه على مرأى من ضيوف له ، تنفيذاً لاتفاق عقد بينهما . . . فصاح : واذلاه . . . ! وأقسم ألا يقيم بهذا البلد وباع كل ما يملك ، ثم استفتى أخاه الكاهن فى البلد الذى يرحل إليه فقال الكاهن : « من كان منكم ذا هم بعيد ، وحمل شديد ومزاد جديد، فليلحق بقصر عمان المشيد » فكان الذى نزلوه أزد عمان فقال : « ومن كان منكم ذا حاجة ووطر ، وسياسة ونظر ، وصبر على أزمات الدهر ، فليلحق ببطن مر » فكان الذين سكنوه خزاعة . . . إلى آخر ما جاء فى هذه القصة.

وتبين لنا القصة السابقة أسلوب الكهان فى تكهناتهم فقد كان لكهان العرب لغة خاصة بهم تمتاز بتسجيع خاص يعرف

يسجع الكهان مع تعقيد وغموض ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم فى مثله : هذا من سجع الكهان فجعل السجع مختصاً بهم بمقتضى الإضافة . ولعل الكهان كانوا يلجأون إلى هذا الأسلوب من القول تمويها على الناس بعبارات تحتمل أكثر من وجه كما يفعل العرافون فى الوقت الحاضر .

وقد اشتهر فى بلاد العرب أيام الجاهلية كثير من الكهان والكواهن وأقدمهم شق بن أنمار ، وسطيح بن مازن : وحكاياتهما أشبه بالخرافات منها بالحقائق . ويقال إن شقا هذا كان نصف إنسان له يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة . وأن سطيحا كان لحماً يطوى كما يطوى الثوب ، لا عظم فيه إلا الجمجمة ووجهه فى صدره ولم يكن له رأس ولا عنق . وكان فى عصره من أشهر الكهان. وقد ولد فى يوم واحد هو وسطيح وكانا من المعمرين . ومن الكهان الذين نبغوا إبان النهضة العربية التى سبقت الإسلام : خنافر بن التوأم الحميرى وسواد بن قارب الدوسى . وكان من الكهان من ينسب إلى بلده أو قبيلته كقولهم كاهن قريش وكاهن اليمن وكاهن حضرموت وغيرهم .

أما الكواهن من النساء فإنهن عديدات منهن طريفة كاهنة اليمن وهى أقدمهن وزبراء الكاهنة وغيرهما .

وكان هناك أيضاً إلى جانب الكهنة فئة أخرى من المتنبئين بالغيب وهم العرافون ،وقد كان منهم كثيرون فى بلاد العرب وذكرهم الشعراء فى أشعارهم فقد قال الشاعر :

فقلت لعراف اليمامة داونى　　فإنك إن داويتنى لطبيب

وقال الآخر :

جعلت لعراف اليمامة حكمه　　وعراف نجد إن هما شفيانى

فقالا : شفاك الله والله مالنـــا　　بما حملت منك الضلوع يدان

وعراف اليمامة هو رباح بن عجلة ، وعراف نجد هو الأبلق الأسدى . وليس هناك اتفاق بصدد التفرقة بين الكهانة والعرافة . ولعل الذى عليه رأى الأغلبية هو أن العرافة لا تشمل الكشف عن الغيب متى اتصل بالماضى أو الحاضر وإنما تقتصر على ما ارتبط بالمستقبل وحده .

ومهما يكن من الأمر فإن العرب تسمى الكاهن عرافاً أيضاً وبعضهم يطلق هذا اللفظ على الطبيب . والعراف عند العرب هو الذى يزعم أنه يعرف الأمور بمقدمات يستدل بها على نتائجها ، أى هى الاستدلال ببعض الحوادث الخالية على الحوادث

الآتية بالمناسبة أو بالمشابهة الخفية التى تكون بينهما، أو الاختلاط أو الارتباط على أن يكونا معلولين لأمر واحد، أو يكون ما فى الحال علة لما فى المستقبل كالشىء يسرق فيعرف المظنون به السرقة ، وتتهم المرأة بالريبة فيعرف من صاحبها، ونحو ذلك من الأمور .

ومن أمثلة العرافة أنه كان فى زمن هارون الرشيد عراف أعمى ، يستدل عن المسئول عنه بكلام يصدر عن أحد الحاضرين عقب السؤال ، فسرقت من خزانة الخليفة أشياء ، فاستدعاه هذا وأمر الحاضرين بأن يلتزموا الصمت عقب السؤال ، فأمر العراف يده على البساط فوجد نوى تمر ، فقال إن المسئول عنه در وياقوت وزمرد فى سفط . . . فسأل الرشيد عن مكانه فقال العراف إنه فى بئر ، فوجدوه كذلك . . . ! ! وسئل العراف فى ذلك ، فقال وجدت نوى تمر ، وطلع النخلة أبيض وهو كالدر ، ثم يكون بسراً وهو أخضر ، وهو لون الزمرد ، ثم يكون رطباً وهو أحمر ، وهو لون الياقوت ! ! فلما سألتم عن مكان المسروق ، سمعت صوت دلو فعرفت أنه فى بئر . فاستحسن الرشيد فراسته وأعطاه مالا جزيلا.

ويدخل فى باب التنبؤ بالغيب الفأل والطيرة والعيافة وكلها

أشياء ترمى إلى الكشف عن حوادث المستقبل استناداً على كلام يسمع من الغير اتفاقاً ، أو استناداً على أصوات الحيوانات وحركاتها وسائر أحوالها ، أو استناداً إلى مصحف يفتح فيكشف عن معنى عفواً ،وقد جرى هذا فى غير المصحف من كتب الشيوخ كديوان الحافظ والمثنوى ونحوهما .

والفأل أمر يدعو إلى الإقدام بعكس الطيرة فإنها تدعو إلى التشاؤم والإحجام . أما العيافةفهى زجر الطيور أى التحدث بالغيب عند سنوح طائر أو حيوان . وكان العرب يزجرون الطير أو الحيوان أى يصيحون به أو يرمونه بحجر فإن ولاهم فى طيره ميامنهسموهسانحاً وتفاءلوا به ، وإن ولاهم مياسره سموه بارحاً وتشاءموا منه فالسانح مرجو عند العرب والبارح هو المخوف ، وإن كان بعضهم يتطير بالسانح ويتيامن بالبارح ، فأهل نجد يتيامنون بالسانح وأهل التهائم بالضد من ذلك ..

وكان العرب فى الجاهلية يكثرون من الزجر ثم شاع الفأل بعد ذلك فى الإسلام ، وقد نهى النبى عن الطيرة فقال : « لا طيرة ولاهامة ولاسفر » وكان عليه الصلاة والسلام يحب الفأل . قيل إنه حين هاجر إلى المدينة ودنا منها سمع منادياً يقول : يا سالم فقال لأصحابه سلمنا ، ولما دخلها سمع آخر يقول يا غانم فقال غنمنا .

وقد عرف عن عمر بن الخطاب أنه كان من الذين يجعلون من الألفاظ التي تقال عفواً موضع تفاؤل أو تشاؤم ، فمن ذلك أن رسولا من ميدان نهاوند أقبل عليه ذات يوم فسأله عن اسمه ، فقال : قريب فسأله عن أبيه فقال : ظفر فقال عمر متفائلا ظفر قريب إن شاء الله ولا قوة إلا بالله .

وللعرب قصص وأخبار طويلة فى الفأل والطيرة والعيافة ؛ من ذلك ما حكاه المدائنى قال : خرج رجل من لهب — ولهم عيافة — فى حاجة له ومعه سقاء من لبن ، فسار صدر يومه ثم عطش فأناخ بعيره ليشرب ، فإذا الغراب ينعب فأثار راحلته ومضى ، فلما أجهده العطش أناخ ليشرب فنعب الغراب فأثار راحلته ، ثم فى الثالثة نعب الغراب وتمرغ بالتراب ، فضرب الرجل السقاء بسيفه فإذا فيه أسود ضخم ، ثم مضى فإذا غراب على سدرة فصاح به فوقع على سلمة فصاح به فوقع على شجرة فانتهى إليه فإذا تحت الشجرة كنز فلما رجع إلى أبيه قال له : ما صنعت ؟ قال سرت صدر يومى ثم أنخت لأشرب فإذا الغراب ينعب قال : أثِرْه وإلا لست بأبنى قال : أثرته ، ثم أنخته لأشرب فإذا الغراب ينعب ، قال : أثره وإلا فلست بابنى قال : أثرته ، ثم أنخته لأشرب فنعب الغراب وتمرغ فى التراب قال : اضرب

السقاء وإلا فلست بابنى قال : فعلت فإذا أسود ضخم ، قال : ثم مه ؟ قال : ثم رأيت غراباً واقعاً على سدرة ، قال : أطره وإلا فلست بابنى قال : أطرته ثم وقع على سلمة . قال أطره وإلا فلست بابنى ، قال : أطرته فوقع على شجرة قال : أخبرنى بما وجدت فأخبره . . .

وذكر التنوخى فى كتابه نشوار المحاضرة عن أبى الحسين قال : اجتزت أنا وأبو طاهر بن نصر القاضى بشارع القاضى ، نقصد دار قاضى القضاة أبى الحسين فى علته التى مات فيها لنعوده فإذا بثلاثة من الأعراب ركبان فشال أحدهم رأسه وقد سمع غراباً ينعب على حائط دار أبى الحسين قاضى القضاة فقال للنفسين اللذين خلفه : إن هذا الغراب ليخبرنى بموت صاحب الدار : . فقال له الآخر : أجل إنه ليموت بعد ثلاثة أيام . فقال الآخر : نعم ويدفن فى داره . فقلت : أسمعت ما قالوا ؟ قال : نعم هؤلاء أجهل قوم . وافترقنا فلما كان فى ليلة اليوم الرابع سحراً ارتفعت الصيحة بموت قاضى القضاة أبى الحسين ، فذكرت قول الأعرابى وعجبت وحضرنا جنازته ودفن فى داره . فقلت لأبى طاهر أرأيت أعجب من وقوع مقالة الأعرابى بعينها إيش هذا ؟ . فقال : لا والله ما أدرى ولكن تعال حتى نسأل عنهم ونقصدهم

ونستخبر منهم من أين لهم ذلك . فقال : كنا أياماً نسأل عنهم وعن حلتهم من البلد فلانخبر ، إلى أن أخبرونا أنهم نزول حلة من بنى أسد بباب حرب فقصد ناهم ، فقلنا : هل فيكم من يبصر الزجر ؟ فقالوا : أجل ثلاثة إخوة فى آخر الحى يعرفون ببنى القائف ، ودلونا على أخبيتهم فجئنا فصادفنا أصحابنا بأعيانهم ولم يعرفونا فأخبرناهم بما سمعناه منهم وسألناهم عنه فقالوا : إنا وغيرنا نعرف نعيباً للغراب بعينه لا ينعبه فى موضع إلا مات ساكنه مجرباً على قديم السنين فى البوادى لا يخطئون ، ورأينا ذلك الغراب نعب ذلك النعب الذى نعرفه . فقلنا للآخر : كيف قلت إنه يموت بعد ثلاثة أيام ؟ قال : كان ينعب ثلاثا متتابعات ثم يسكت ثم ينعب قلنا على هذا فحكمت بذلك . فقلت للآخر وكيف قلت إنه يدفن فى داره ؟ قال : رأيت الغراب يحفر الحائط بمنقاره ورجليه ويحثو على نفسه التراب فقلت إنه فى داره.

وذكر عن كثير عزة أنه خرج يريد مصر ، وكانت عزة بها ، فلقيه أعرابى من نهد فقال : أين تريد ؟ قال : أريد عزة بمصر ، قال : ما رأيت فى وجهك قال : رأيت غراباً ساقطاً فوق بانة ينتف ريشه فقال : ماتت عزة ! فانتهى ومضى فوافى مصر والناس منصرفون من جنازتها فأنشأ يقول :

فأما غراب فاغتراب وغربة   وبان فبين من حبيب تعاشره

وقد اشتهر من بين العرب كثيرون فى الزجر والعيافة كعراف اليمامة والأبلق الأسدى والأجلح وعروة بن يزيد وغيرهم ممن لا يحصى عدداً .

وكان هناك من بين العرب من أنكر الزجر ونحوه وذم من اغتر به واعتمد فى أمره عليه منهم ضابىء بن الحرث وقد قال فى ذلك

وما عاجلات الطير تدنى من الفتى   نجاحاً ولا عن ريثهن يخيب
ورب أمور لا تضيرك ضيرة   وللقلب من مخشاتهن وجيب
ولا خير فيمن لا يوطن نفسه   على نائبات الدهر حين تنوب

ومنهم النابغة وقد رُوى أنه خرج هو وزياد بن سيار يريدان الغزو فرأى زياد جرادة فقال : حرب ذات ألوان فرجع ومضى النابغة . ولما رجع غانماً قال :

يلاحظ طيرة أبداً زيـاد   لتخـبره وما فيها خبير
أقام كأن لقمان بن عاد   أشار له بحكمته مشير
تعلم أنـه لا طير إلا   على متطير وهو الثبور
بلى شىء يوافق بعض شىء   أحـايينا وباطله كثير

وقال النبى صلى الله عليه وسلم وقد سئل عنها : « ذاك شىء

يجده أحدكم فلا يصدقه » . وقال شراح الحديث إنه ليس فى سنوح الطير وبروحها ما يقتضى ما اعتقدوه وإنما هو تكلف بتعاطى مالا أصل له ، إذ لا نطق للطير ولا تمييز فيستدل بفعله على مضمون معنى فيه ، وطلب العلم من غير مظانة جهل من فاعله .

وإنه على الرغم من ذلك فقد بقيت من هذا بقايا فى كثير من المسلمين . ومن العيب أن بعض القبائل العربية فى الجاهلية كانت لا تزوج بناتها إلا لمن اتصف بصفات خاصة منها معرفته للزجر والعيافة حيث إن هذه المعرفة عندهم كانت من الصفات العلية .

وكانت عند العرب غير ما ذكرنا وسائل أخرى يتوسلون بها إلى معرفة الغيب كالطرق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى والخط فى الرمال . فكان الكاهن إذا سئل عن حادثة أخرج حصيات قد أعدها عنده فيطرق بعضها ببعض فياوح له حينئذ ما يعلم به جواب السؤال . أما الخط فى الرمال فكان الكاهن يأمر غلامه أن يخط خطوطاً على رمل أو تراب ويكون ذلك منه فى خفة وعجلة لا يدركها العد والإحصاء ، ثم يأمره فيمحوها خطين خطين وهو يقول « إبنى عيان . أسرعا البيان » فإن كان آخر ما يبقى منها خطين فهو آية النجاح وإن كان قد بقى خط واحد فهو علامة الخيبة والحرمان .

الفصل الرابع
المنجمون والتنبؤ بالغيب

لم يكن للعرب في الجاهلية دراية بصناعة التنجيم، وظلوا على جهلهم بهذا العلم حتى كادت الدولة الأموية أن تنقرض . ونستدل على ذلك أننا لا نجد فى أشعار الجاهلية وأخبارها شيئاً يدل على علمهم بهذه الصناعة على وفرة ما جاء فى هذه الأشعار والأخبار ، من اشتغالهم بالكهانة والقيافة والزجر والطيرة وغير ذلك من أنواع التفاؤل والتشاؤم . على أن العرب الذين استقروا خارج الجزيرة العربية بعد أواسط القرن الأول قد قالوا بتأثير الكواكب فى السعد والنحس على الأخلاق .

ومهما يكن من الأمر فقد شاعت النجامة منذ الماضى السحيق عند قدماء الشرقيين . ويعتبر الكلدان أساتذة العالم فى علم النجوم فهم الذين وضعوا أسسه وأقاموا بنيانه، وقد ساعدهم على ذلك صفاء سمائهم وجفاف هوائهم فرصدوا الكواكب وعينوا أماكنها ورسموا الأبراج ومنازل القمر والشمس وحسبوا الكسوف والخسوف بآلات فلكية منذ أكثر من أربعين قرناً خلت .

وقد أخذ عنهم هذا العلم اليونانيون والأشوريون والمصريون

وغيرهم من أهل الحضارات القديمة . وفى القرن الخامس قبل الميلاد أغار الفرس على الكلدان وفتحوا بلادهم واستبدوا بهم فثقل ذلك على الكلدان فهاجر كثيرون منهم إلى البلاد المجاورة لهم وخاصة بلاد العرب التى كانت ملاذاً للمهاجرين من العراق ومصر والشام وذلك لامتناعها على الجيوش المغيرة بسبب فيافيها القفراء .

وكان فى جملة المهاجرين إليها جماعة من الكهان وأصحاب النجوم فتعلم العرب منهم أحكام النجوم وأخذوا عنهم أسماءها كما عرفوا منهم مواقع الأبراج ومناطقها ومنازل القمر والشمس . وعلى الجملة فإن العرب مدينون بعلم النجوم للكلدان وهم يسمونهم الصابئة .

ولم يكن للتنجيم شأن عند العرب إلا منذ قيام الدولة العباسية ، ولعل أول من اهتم بالتنجيم والنجوم هو أبو جعفر المنصور الذى أمر بترجمة الكثير من كتب هذا الفن . وقد سار خلفاؤه على منواله وأصبح للتنجيم شأن كبير عندهم بحيث كان المنجمون فئة من موظفى الدولة كما كان الأطباء والكتاب والحساب ولهم الرواتب والأرزاق . وكان الخلفاء يستشيرون المنجمين فى كثير من الأمور الإدارية والسياسية ، فكانوا إذا خطر لهم أمر ذو شأن

وخافوا مغبته استشاروا المنجمين،فينظرون فى حال الفلك واقترانات الكواكب ؛ ثم يشيرون بموافقة هذا العمل أو عدمه .

ويعرف التنجيم عند العرب بأسماء مختلفة،فهم يسمونه أحياناً علم أو صناعة النجوم،وأحياناً علم أو صناعة الأحكام،وسماه البعض علم النجامة . ويطلق على المشتغل بعلم النجوم أو التنجيم الإحكامى،أو المنجم وإن كان اللفظ الأخير يطلق أيضاً على الفلكى .

وقد انعقد إجماع المتكلمين والفقهاء والفلاسفة على إنكار التنجيم . وشذ عن هؤلاء قلة من أمثال الكندى وإخوان الصفاء وفخرالدين الرازى .

ومن أقوال المنكرين لهذا العلم أنه ليس فى معرفة الكائنات قبل وقوعها صلاح لإنسان من الناس،لأن فى ذلك تنغيصاً للعيش واستجلاباً للهم واستشعاراً للخوف والحزن والمصائب قبل حلولها .

ويقول المؤيدون إن الإنسان إذا علم ما يكون من حادث فى المستقبل أو كائن بعد ، أمكنه أن يدفع عن نفسه بعضها لا بأن يمنع ويدفع كونها ، ولكن يتحرز منها أو يستعد لها كما يفعل سائر الناس،ويستعدون لدفع برد الشتاء بجمع الدثار،ولحر الصيف بأخذ السكن ، ولسنى الغلاء بالادخار ، ولمواضع الفتن

بالهرب منها والبعد عنها ، وترك الأسفار عند المخاوف وما شاكل ذلك ؛ مع علمهم بأنهم لا يصيبهم منها إلا ما كتب الله لهم وعليهم . ذلك بالإضافة إلى أن الناس متى علموا بالحوادث قبل كونها ؛ أمكنهم أن يدفعوها قبل نزولها بالدعاء والتضرع إلى الله والتوبة والإنابة إليه بالصوم والصلاة والقربان ، وسؤاله أن يصرف عنهم ما يخافون نزوله ، وبهذا نزلت الديانات وسنت الشرائع .

ومن وجوه الإنكار أن النووى وهو أحد الأئمة المجتهدين وقد توفى عام ١٦١ للهجرة لقى المنجم اليهودى « ما شاء الله » وكان صاحب حظ قوى فى سهم الغيب والإخبار بأمور الحدثان ، فقال له : أنت تخاف زحل وأنا أخاف رب زحل ، وأنت ترجو المشترى وأنا أرجو رب المشترى ، وأنت تغدو بالاستشارة ، وأنا أغدو بالاستخارة فكم بيننا . . . ؟

ويذهب المؤيدون لهذا العلم أن من نظر فى هذا العلم وفكر فى سعة هذه الأفلاك وسرعة دورانها وعظم هذه الكواكب وعجيب حركاتها وأقسام هذه البروج وغريب أوصافها تشوقت نفسه إلى الصعود إلى الفلك والنظر إلى ما فيه وليس هذا ممكناً بهذا الجسد الثقيل الكثيف ، ولكن النفس إذا فارقت هذه الجثة ولم يعقها شىء من سوء أفعالها أو فساد آرائها استطاعت أن

تصعد فى لمح البصر إلى عالم الأفلاك ، وبغير هذا تبقى تحت فلك القمر سائحة فى مقر هذه الأجسام المستحيلة المتضادة تارة من الكون إلى الفساد وتارة من الفساد إلى الكون . والنظر فى هذا العلم يعين على الترقى إلى ما هو أشرف وأجل فهو ينبه النفس من نوم الغفلة ورقدة الجهالة .

وقال منكروه إن أحكام هذا العلم وإن لم تبطل من أساسها فإنها لا تصح بأسرها وليس هذا بالهين اليسير ، وصحتها وبطلانها تتوقف على آثار الفلك . وقد يقتضى شكل الفلك فى زمان ما ، ألا يصح من أحكام النجوم شىء وإن غاص أهلها على وقائعها وبلغوا إلى أعماقها .

ويرد على ذلك المؤيدون بقولهم إن الصناعة لا تبطل ولا تكون أدلتها فاسدة ، لأن أهلها يتعرضون للأخطار فى استدلالاتهم ، فعلم النجوم وأدلته صحيحة وحق ، وإن أخطأ أهله فى بعض استدلالاتهم أو أكثرها . لأن الله هو الذى نصب الأشخاص الفلكية وأجراها مجاريها وقد جعله الله معجزة لإدريس النبى ، وكذلك الطب وصناعته ، فإن دلالته صحيحة ، وقد يصيب الأطباء ويخطئون فى قضاياهم باستدلالاتهم التى نصبوها فى أكثرها ، فلا تبطل صناعة الطب من أجل ذلك ، وهكذا أيضاً الفقهاء

والحكماء ، وأهل الفتوى فى أحكام الدين من الحلال والحرام ، قد يصيبون أو يخطئون فى قضاياهم واستدلالاتهم التى نصبها لهم البارى من آيات كتبه المنزلة . فخطؤهم وزللهم لا يبطل العلم والصناعة والأدلة المنصوبة ، ولكن التقصير والعجز موكولان بالإنسان لنقصه عن التمام .

وعلى الرغم من أن أدلة خصوم التنجيم ودعاة الاستخفاف به ، تبدو أقوى من حجج أنصاره ومؤيديه ، فإنها لم تذهب بنفوذه فى قصور الخلفاء والسلاطين وعند عامة الناس على السواء . وقد ظل هذا النفوذ قائماً حتى القرن الغابر حين أتى عليه قيام الحضارة الغربية عامة ومذهب كوبر نيكوس المتوفى عام ١٥٤٣ بوجه خاص . ومن أجل هذا ظل قائماً فى البلاد التى لم تغزها الحضارة الغربية ، وإن افتقد جلاله الذى كان له فى العصور الوسطى . ومن الملاحظ أن قضاة اليمن كانوا لا يزالون يزاولون صناعة أحكام النجوم حتى عهد قريب بل لا تزال له آثار باقية فى تلك البلاد حتى اليوم .

ومهما يكن من الأمر فقد كان للمنجمين مكانة ممتازة فى بلاط السلاطين والخلفاء . وقد جاء فى كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان أن الحجاج بن يوسف حين حضرته الوفاة ،

استدعى منجماً وقال له : هل ترى فى علمك ملكاً يموت ؟ قال المنجم نعم ولست هو ، لأن الذى يموت اسمه كليب ، قال الحجاج إنه أنا والله « بذلك سمتنى أمى » وكتب وصيته .

وقد كان جعفر المنصور ثانى الخلفاء العباسيين ، يدنى المنجمين من حضرته ويستشيرهم فى أموره ، وكان نوبخت الفارسى يصحب المنصور ولما ضعف عن خدمته طلب إليه هذا إحضار ولده ليأخذ مكانه ، فسير له ولده أبا سهل .

ويذكر المؤرخون أن المنصور لما حج حجته التى توفى فيها، رافقه من المنجمين أبو سهل ، بل إن المنصور حين هم ببناء بغداد عام ١٤٥ هـ وضع أساس المدينة فى وقت اختاره نوبخت المنجم وما شاء الله بن سارية ، وأن الذين هندسوا المدينة كانوا فى حضرة نوبخت وإبراهيم بن محمد الفزارى والطبرى من المنجمين.

ونستدل من هذا ومن روايات أخرى كثيرة أن بعض الحكام والخلفاء كانوا يعتقدون فى صحة أقوال المنجمين . وليس من شك أن هذا الاعتقاد لم يتكون إلا بعد أن خبروا المنجمين وتبينت صحة أقوالهم وتنبؤاتهم فى أحوال كثيرة .

وإذا كان المنجمون قد صدقت نبوءاتهم فى بعض الحالات فإن هناك روايات تدلنا على عدم تحقق نبوءاتهم فى أكثر

الحالات؛ من ذلك اتفاقهم عند ما تم بناء مدينة بغداد عام ١٤٦ هـ أن طالعها يقضى بأنه لا يموت فيها خليفة . وشاع ذلك حتى هنأ الشعراء به المنصور حتى قال بعض شعرائه :

يهنيك منها بلدة تقضى لنا أن الممات بها عليك حرام
لما قضت أحكام طالع وقتها أن لا يرى فيها يموت إمام

وأكد هذا القول فى نفوس الناس موت المنصور بطريق مكة ثم المهدى بما سبذان ثم الهادى بعساباذ ثم الرشيد بطوس . فلما قتل بها المأمون الأمين بشارع باب الأنبار ظهر فساد قول المنجمين ولذلك قال الشاعر :

كذب المنجم فى مقالته التى نطقت به كذباً على بغدان
قتل الأمين بها لعمرى يقتضى تكذيبهم فى سائر الحسبان

وقد مات ببغداد جماعة من الخلفاء مثل الواثق والمتوكل والمعتضد والمكتفى والناصر وغيرهم .

ومن ذلك اتفاق المنجمين عام ٣٥٣ هـ عند ما أراد القائد جوهر بناء مدينة القاهرة ، وكان قد سبق مولاه المعز إلى الدخول إلى الديار المصرية لما أمره المعز بدخولها بالدعوة، وأمره إذ دخلها أن يبنى بها مدينة عظيمة تكون نجوم طالعها فى غاية الاستقامة

ويكون بطالع الكوكب القاهر وهو زحل أو المريخ على اختلاف حاله . فجمع القائد جوهر المنجمين بها وأمر كل واحد منهم أن يحقق الرصد ويحكمه وأمر البنائين ألا يضعوا الأساس حتّى يقال لهم ضعوه وأن يكونوا على هيئة من التيقظ والإسراع حتّى يوافقوا تلك الساعة التى اتفقت عليها أرصاد أولئك الجماعة ، فوضعت الأساسات على ذلك فى الوقت الحاضر وسموها بالقاهرة إشارة إلى الكوكب القاهر ،واتفقوا كلهم بأن الوقت الذى بنيت فيه يقضى بدوام جدهم وسعادتهم ودولتهم ؛ وأن الدعوة لا تخرج فيها عن الفاطمية وإن تداولتها الألسن العربية والعجمية . فلما ملكها أسد الدين شيركوه بن شادى ،ثم ابن أخيه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ومع ذلك المصريون قائمون بدعوة العاضد عبد الله بن يوسف، توهم الناس أن ما قال المنجمون من قبل حقًّا لتبدل اللسان وحال الدعوة مستبقى . فلما رد صلاح الدين الدعوة إلى بنى العباس انكشف الأمر وزال الالتباس وظهر كذب المنجمين حتّى اعتذر من اعتذر منهم بأن البنائين كانوا قد سبقوا الرصادين إلى وضع الأساس .

وقد وقف بعض علماء المسلمين من التنجيم موقفاً وسطاً فلا هو بالمؤمن به ولا هو بالمنكر له ، من ذلك ما حكاه التنوخى فى

كتابه نشوار المحاضرة من أن أبا محمد عبد الله بن عباس الرامهرمزى المتكلم أخبره قال : أردت الانصراف من عند أبى على الجبائى — وهو من كبار المتكلمين — إلى بلدى فجئته مودعا فقال لى : يا أبا محمد لا تخرج اليوم فإن المنجمين يقولون إن من سافر فى مثله غرق فأقم إلى يوم كذا وكذا فإنه محمود عندهم فقلت : أيها الشيخ مع ما تعتقده فى قولهم كيف تجئ بهذا ؟ فقال : يا أبا محمد لو أخبرنا مخبر ونحن فى طريق أن فيه سبعا أليس كان يجب فى الحكمة علينا ألا نسلك ذلك الطريق إذا قدرنا على سلوك غيره وإن كان ممن يجوز عليه الكذب ؟ قلت : نعم . قال : فهذا مثله ، وقد يجوز أن يكون الله تعالى أجرى العادات بأن تكون الكواكب إذا نزلت هذه المواضع حدث كذا والأخذ بالحزم أولى . قال : فأخرت خروجى إلى اليوم الذى قاله .

ولقد سبق أن ذكرنا أن علم التنجيم كان مزدهراً فى العالم القديم وخاصة عند البابليين والأشوريين وفى الهند ومصر والصين واليونان وروما ، ولكنه تدهور حتى كاد يتلاشى فى أوربا بظهور المسيحية . غير أن الفتح الإسلامى لأوربا فى القرنين التاسع والعاشر قد أعاد لهذا العلم مكانته فى القارة الأوربية حتى أنه كان يعتبر فى عهد دانتى من أسمى العلوم وأنبلها . وكان هناك

منجم خاص لكل ملك أو أمير فى أوربا يستشيره فى كل أموره؛ فلا يقدم على عمل إلا بعد أن يقرأ له المنجم الطالع . بل والأكثر من ذلك أن بعض البابوات أنفسهم كانوا من المشتغلين بالتنجيم نذكر منهم البابا سلفستر والبابا يوحنا العشرين ويوحنا الحادى والعشرين وچوليوس الثانى وكليمنت الثامن وغيرهم . ولقد تنبأ مارسيليو فسينو Marsillio Ficino منجم دوق فلورنسه المعروف باسم لورنزو العظيم بأن واحداً من أولاد هذا الدوق — وهو چيوڤانى ده مديسى — سوف يعتلى الكرسى البابوى . ولما اعتلى چيوڤانى هذا الكرسىَ البابوى تحت اسم ليو العاشر أصبح راعياً للمنجمين ونصيراً لهم .

ونجد أن عالماً دينيّاً كبيراً وفيلسوفاً من أشهر فلاسفة العصور الوسطى وهو توماس الأكوينى يعلن أن الأجرام السماوية هى السبب فى جميع أحداث هذا العالم الدنيوى .

والواقع أن كل واحد فى العصور الوسطى كان يعتقد فى التنجيم على الرغم من الأخطاء التى وقع فيها كثير من المنجمين . إن المنجمين الأوربيين الأول من أمثال كوبرنيكوس وتيخو براهه وكبلر ، بل إن إسحاق نيوتن مكتشف قانون الجاذبية كانوا جميعاً من المهتمين بدراسة « العلم القديم » أى التنجيم كما

كان يعرف فى ذلك الوقت . ويقال إن إسحاق نيوتن عند ما التحق بجامعة كمبردج عام ١٦٦٠ — وكان عند ذاك فى السابعة عشرة من عمره، سؤل عما يريد أن يدرسه بالجامعة فقال: أريد دراسة الرياضيات لأنى أرغب أن اشتغل بالتنجيم .

ولم يكن رجال الكنيسة أقل تعلقاً بالتنجيم من العلمانيين . فقد أصيب رئيس أساقفة كنيسة القديس اندروز بإنجلترا بمرض أعيا نطس الأطباء الإنجليز فأرسل فى طلب المنجم الرياضى المشهور چيروم كاردان من أوربا عام ١٥٥٢ . وقد قرأ هذا المنجم طالع الأسقف وكشف عن مرضه وعالجه حتى برىء . ولما انتهى المنجم من مهمته قال لرئيس الأساقفة : « لقد استطعت أن أبرئك من علتك ولكنى لا أستطيع أن أغير من مصيرك، ولا أن أحول دون رأسك وحبل المشنقة » . وحدث بعد ذلك بثمانية عشر عاماً أن شنق هذا الأسقف بأمر من لجنة التحقيق التى أنشأتها مارى كوين الوصية على عرش اسكتلندا .

وعلى الرغم من ذلك فقد وقع المنجمون فى أخطاء عديدة جسيمة منها تلك التنبؤات التى جعلت أهل أوربا يبنون الفلك استعداداً للهرب من الطوفان الجديد الذى سوف يحل بالعالم كما قال المنجمون. وذهب المنجمون أيضاً فى العصور الوسطى إلى أن

نهاية العالم سوف تكون فى عام ١٥٨٤ وأكد هذا القول ليوفتيوس Leovituis منجم بلاط الأمير هنرى أمير البلاتينات ؛ الذى قال إن الكواكب تنبئ بأن العالم سيفنى فى عام ١٥٨٤ . بل إن كبلر كبير المنجمين والفلكيين فى عصره قرأ الطالع للجنرال ولشتين عام ١٦٠٩ وأنبأه بأنه سوف يعيش حتى يبلغ السبعين من عمره ولكن ولشتين قد مات قبل ذلك بنحو تسعة عشر عاماً.

ومن المؤكد أيضاً أن كثيراً من تنبؤات المنجمين قد تحققت ؛ مثال ذلك ما ذكره المنجمون عن ذلك الطوفان الحربى الذى اجتاح العالم فى القرن الثالث عشر . فى ذلك القرن ألقى زعيم إحدى القبائل الرحل التى تقطن السهوب الشاسعة الواقعة إلى الشمال والغرب من الصين الرعب فى قلوب الناس . فقد اجتاح هذا الزعيم بخفة وسرعة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ العالم بلاد آسيا وقهر دوق روسيا الأكبر وقضى على ملكه وعاث فى بلاده فساداً.

كان اسم هذا الزعيم « چنكيزخان » ولم يكن أحد فى العالم فى ذلك الوقت يعرف شيئاً عن هذا الزعيم الذى انقض على العالم كالصاعقة أو القضاء المحتوم . لقد كانت دعوات الناس فى صلاتهم فى ذلك الوقت « اللهم نجنا من غارات أهل الشمال » . لقد كان هذا الفاتح الجبار فى الواحد والأربعين من عمره عند ما

خرج فى حملته التاريخية الهائلة وكانت إمبراطوريته التى كونها بحد السيف تمتد من المحيط الهادى حتى نهر الدنيبر .

ولعل القارئ يسأل وما صلة ذلك بالتنبؤ بالغيب الذى هو موضوع هذا الكتاب؟ إن لذلك صلة وثيقة كما سنذكر فيما يلى:

فى مستهل عام ١١٧٩ وجد كثيرون من المنجمين أن الطوالع تدل على أن كارثة هائلة سوف تحل بالعالم وبالإنسانية ورأوا أن من واجبهم أن ينبهوا العالم إلى هذا الخطر الذى على وشك الحدوث ، فكان سكان أوربا أجمعين ينظرون إلى المستقبل نظرة ملؤها الخوف والوجل ،لأن المنجمين ذكروا أن هذه الكارثة سوف تحل عام ١١٨٦ . ولم يكن هذا الخوف مقصوراً على أهل أوربا وحدهم بل كان شائعاً فى جهات أخرى غير أوربا. فالشاعر والمنجم الفارسى المعروف « أنورى » قد تنبأ بعاصفة كاسحة فى السادس عشر من شهر سبتمبر عام ١١٨٦ ، لأن اجتماع خمسة كواكب فى برج الميزان فى تلك الليلة هو الذى دفع أنورى إلى التنبؤ بهذه النبوءة على الرغم من أن الليلة التى قال عنها أنورى أن عاصفة كاسحة قد حدثت فيها كانت ليلة هادئة.

وقد سخر أنورى من نفسه لهذا القول أو التنبؤ ولكن تبين بعد ذلك أن جنكيزخان زعيم التتر الذين اجتاحوا العالم قد ولد فى

تلك الليلة التى قال عنها أنورى وعلى ذلك تكون نبوءة أنورى صحيحة وإن لم يفهم مدلول هذه العاصفة الكاسحة فى حينه .

ومن المؤكد أيضاً أن كثيراً من تنبؤات المنجمين قد صدقت وتحققت : من ذلك أن پيكو دلا ميراندولا وهو من أشهر علماء عصر النهضة فى إيطاليا وكان من المتعصبين ضد التنجيم والمنجمين حتى نعته البعض بأنه نقمة المنجمين ، قد تنبأ له ثلاثة من المنجمين أنه سيموت وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره . وكان من أمر هذه النبوءة أن تحققت بالضبط كما قال هؤلاء المنجمون إذ توفى پيكو فى اليوم بل وفى الساعة التى تنبؤا بها ؛ فكان ذلك أكبر نصر للمنجمين الذين حاربهم پيكو طوال حياته .

وهناك منجم آخر يدعى پيير دللى Pierre d'Ailly قد تنبأ بالفترة العصيبة التى سوف تمر بها فرنسا ابتداء من عام ١٧٨٩ وكان ذلك قبل حدوثها بأربعمائة سنة .

وقرأ أحد المنجمين الإيطاليين ويدعى چوليانو دل كارمن الطالع للدوق السندرو ده مديسى أول دوق لفلورنسة ، فوجد أن هذا الدوق سوف يُغتال وأن الذى سيغتاله هو ابن عمه لورنزاشيو . ورأى المنجم أن من واجبه أن يخبر الدوق بذلك على الفور ، ولكن الدوق استخف بقول المنجم وابتسم لهذه المخاوف التى

تساوره فقد كان أهل فلورنسة أجمعين يحبون الدوق ويلتفون حوله . ورأى أحد حراس الدوق أيضاً فى منامه أن الدوق قد اغتيل على يد رجل ضعيف قميىء حتى إن صورته قد علقت فى مخيلته . وفى الصباح قص الجندى هذا الحلم على سيده وفى أثناء ذلك دخل لورنزاشيو على الدوق فصاح الجندى، هذا هو الرجل الذى شاهدته فى منامى فما كان من الدوق إلا أن صرف الجندى بعد أن أنبه على هذا القول . وفى نفس ذلك اليوم قتل لورنزاشيو الدوق أثناء صعوده درجات الكنيسة .

وفى عام ١٤٦٠ نشر جون كابسترانو كتاباً بعنوان « علم الفلك » ذكر فيه هذه النبوءة التالية وقال إنها ستحدث عام ١٦٢٢ :

« إن أسد نصف الليل الأكبر سوف يخرج من عرينه ولكنه لن يرجع ثانية إليه وإن يكن قد قام بما فرض عليه . سوف يقول كثيرون من يعدون أنفسهم من الذين أوتوا الحكمة « إنه لايستطيع ذلك » ويقول آخرون « ألم نخبركم بذلك مقدماً ؟ أما الذين سوف يقاسون أكثر من غيرهم فسيتجاهلون الأمر وينظرون إلى هذا الأسد على اعتبار أنه ديك لا يخشاه أى صقر. ومهما يكن من الأمر فإن هذا الأسد سوف يزأر فى عام ١٦٢٢

بصوت عال بحيث تهتز له الأرض ويفزع منه جميع البشر » .

وقد تحققت هذه النبوءة فى عام ١٦٣٢ إذ خرج فى ذلك العام جوستاف أدولف أسد السويد وكان له الشأن الأكبر فى حرب الثلاثين سنة . وهو المدافع الأكبر عن المذهب البروتستانتى وأوقع الهزيمة بكل من الجنرال تيلى Tilly والجنرال وولنشتين Wallenstein وهما من أشهر قواد آل هابسبورج المدافعين عن المذهب الكاثوليكى . ولم تكن السويد ولا أية دولة أخرى من الدول الإسكندنافية لها أى شأن يذكر فى التاريخ الأوربى فى عام ١٤٦٠ وهو العام الذى نشر فيه كابسترانو نبوءته المذكورة .

والمعروف أيضاً أن تيخو براهة Tycho Brahe (١٥٤٦ — ١٦٠١) أعظم الفلكيين فى القرن السادس عشر كان يعتبر كذلك من أعظم المنجمين ، فقد كرس حياته للتنجيم وهو لا يزال فى الرابعة عشرة من عمره . وكان ينظر إلى الفلك والتنجيم على اعتبار أنهما شىء واحد وكان هذا هو رأى الكثيرين من علماء ذلك العصر . لقد اضطر تيخو إلى دراسة التنجيم سراً لأن أبواه كانا يرغبان فى أن يصبح ولدهما محامياً . وتمكن تيخو فى عام ١٥٧٧ — وكان لا يزال شاباً من أن يضحد نظرية أرسطو التى كانت متحكمة فى العقول زماناً طويلا ومؤداها

أن السموات محدودة ومحاطة بدائرة صلدة . وقد وصل إلى ذلك بدراسة المذنب الذى ظهر فى ذلك العام . بل لقد كان تيخو فى السابعة عشرة من عمره فقط عندما تنبأ فى عام ١٥٦٣ بالطاعون الكبير الذى اجتاح أوربا عام ١٦٦٥ ، وقد قال السير دافيد بروستر David Brewster وهو من أعظم علماء القرن التاسع عشر أن تيخو لا يتفوق عليه أحد من الفلكيين سواء فى العصر القديم أو العصر الحديث .

لقد تنبأ تيخو هذا أيضاً بمجىء جوستاف أدولف وذلك من ملاحظته لنجم جديد ظهر فى برج ذات الكرسى Cassiopia عام ١٥٧٢ . فقد ذكر أن أميراً شجاعاً على وشك الظهور وسوف تبهر جيوشه ألمانيا بأسرها ولكنه سوف يختفى هو نفسه عام ١٦٣٢ . والمعروف أن جوستاف أدولف لم يولد إلا عام ١٥٩٤ وقد قتل عام ١٦٣٢ فى موقعة لوتزن .

وكان فى بلاط الملكة إليصابات ملكة إنجلترا منجم يدعى چون دى John Dee وفى ذات يوم استدعى هذا المنجم على عجل لأن جلالة الملكة كانت تريد أن تستوضح منه عن بعض الأمور التى تشغل بالها . لقد ذكر منجم شاب يدعى جولد ماير أن جوستاف أدولف سوف يفقد حياته فى

لوتزن عام ١٦٣٢ . وكانت الملكة إليصابات هى وحاشيتها يهمها موت جوستاف هذا الذى أصبح خطراً يهدد ملكها ولكنها لم تكن تثق فى قول هذا المنجم الشاب . ولكن لما توفى جوستاف فعلا فى عام ١٦٣٢ فى لوتزن أصبح هذا الشاب منجماً شهيرا وكافأه الملك فرديناند الثالث وقربه إليه .

فليس بعجيب إذاً أن نرى الملوك والأمراء فى أوربا فى ذلك العهد يحتفظون فى بلاطهم بالمنجمين ويحيطونهم بمظاهر التكريم والتبجيل والتعظيم ويستشيرونهم فى كل أمر هام . فنجد أن رودلف الثانى إمبراطور النمسا كان شديد الرغبة فى أن يكون تيخو براهة منجمه الرسمى لذلك استدعاه إلى بلاطه ومنحه راتباً ضخماً وأرضاً يستغلها وابتنى له مرصداً خاصاً زوده بجميع آلات الرصد . وكان رودلف هذا يزهو بأن لديه الجداول الرودلفية وهى الجداول الفلكية التى وضعها تيخو وأصبحت تحمل اسم رودلف وكان الفلكيون يستعملونها بكثرة فى ذلك الوقت . وقد سمح رودلف لمنجمه تيخو أن يستعين بكبلر Kepler فى أبحاثه الفلكية وهو الرجل الذى ذاع صيته فى الفلك بعد ذلك حتى كادت شهرته تغطى على شهرة تيخو براهة.

وجون كبلر هذا من أعظم الفلكيين الذين ظهروا فى العالم

كما كان أيضاً من أعظم المنجمين . ولقد تنبأ كبلر هذا بمقتل ولنشتين ولكنه أخطأ فى تحديد التاريخ بالضبط . وهو كفلكى قد وضع القوانين الفلكية التى تنسب إليه وهى التى مكنت بعد ذلك السير إسحاق نيوتن من الكشف عن قانون الجاذبية . على أن هذا الفلكى قلما كان يخطىء كمنجم فى تنبؤاته . فقد ذكر فى تقويمه الفلكى لعام ١٦١٩ أن الإمبراطور متياس سوف يموت فى شهر مارس من ذلك العام . وقد توفى بالفعل هذا الإمبراطور فى العشرين من شهر مارس سنة ١٦١٩ .

وكان كبلر إذا قرأ طالع فرد من الأفراد فكأنه يرسم له صورة واضحة دقيقة وكأنها بريشة المصور العالمى رمبرانت . لقد قرأ كبلر طالع دوقة فريدلاند (زوجة ولنشتين) ولم يكن قد رأى هذه السيدة من قبل ولكنه ذكر وصفا دقيقاً لمنظر هذه الدوقة ولصفاتها المميزة لها ولمزاجها الخاص كل ذلك بشكل دقيق للغاية، الأمر الذى دفع ولنشتين أن يتخذ من كبلر منجماً خاصاً له . وكان معنى ذلك فى تلك الأيام أن يأخذ هذا المنجم راتباً ضخماً ويقطن فى منزل أنيق ويستمتع بوافر العناية والتكريم . على أن هذا الحظ الذى واتى كبلر قد جاءه متأخراً لأن كبلر قد توفى بعد ذلك بسنتين .

لقد كان الأمراء والحكام فى أوربا يطمحون فى أن يكون لكل واحد منهم منجم مثل كبلر إذ ما معنى الحياة فى نظرهم دون منجم ماهر ينبئهم بما ستأتى به الأيام من أحداث ؟ .

ففى عام ١٦٢٠ تقدم السير هنرى واتون سفير چيمس الأول ملك انجلترا إلى كبلر بعروض سخية ولكنه أخفق فى سفارته ولم ينجح فى إغراء هذا الفلكى الشهير على الذهاب إلى انجلترا إذ آثر كبلر العوز على أن يعيش فى بيئة غريبة عليه فى كل شىء .

على أن انجلترا كانت فى الوقت الذى رفض فيه كبلر أن يذهب إلى هناك تمهد لمنجمها الخاص . فإنه فى نفس العام الذى قابل فيه السير هنرى واتون المنجم كبلر وعرض عليه الذهاب إلى لندن—وفد على هذه المدينة شاب قوى البنية من أهل الريف. وكان فى ذلك الوقت فى الثامنة عشرة من عمره على حظ قليل من العلم وعلى دراية باللغتين اليونانية واللاتينية وقد جاء إلى لندن سعياً وراء الرزق . واشتغل هذا الشاب فى بداية أمره فى بعض المهن الحقيرة ثم جرته الصدفة بعد ذلك إلى الاتصال بالدكتور سيمون فورمان Simon Forman وكان من المشتغلين بالعلوم الخفية فحبب هذا العالم للشاب وكان يدعى ليللى Lilly

دراسة التنجيم ، وتزوج هذا الشاب بعد وفاة أستاذه من أرملته وكانت على حظ من الثراء فتمكن من دراسة التنجيم على يد بعض المشتغلين بهذا العلم .

وقد أخذ هذا الشاب منذ عام ١٦٤١ ينشر تنبؤاته التى قابلها المثقفون فى ذلك الوقت بالضحك والسخرية ولكن كثيراً من علية القوم الإنجليز كانوا يذكرون بعد ذلك تنبؤاته بالإعجاب ومن بينهم شارل الأول وكرومويل ، بل كان ليللى هذا فى وقت من الأوقات يعتبر المنجم الخاص لكرومويل .

ومن الأسباب التى أدت إلى شهرة ليللى هذا تنبؤه بالطاعون الأعظم وبحريق لندن الشهير . ومن المعروف أن البرلمان الإنجليزى عند ما أخذ يبحث عن أسباب حريق لندن الهائل الذى حدث عام ١٦٦٦ استدعت اللجنة القائمة بهذا البحث ليللى وسألته ما إذا كان تنبؤه هذا قائماً على علمه بمؤامرة كانت تدبر لهذا العمل أم قائماً على حسبانات فلكية . وقد أقنع ليللى اللجنة أنه تنبؤه هذا كان قائماً على حسابات فلكية دون غير .وأخذ ليللى هذا يصدر التقاويم الفلكية التى نال بسببها شهرة فائقة وحصل من ورائها على ثروة كبيرة .

الفصل الخامس

التنبؤ بالغيب فى أوربا

مر وقت فى العصور الوسطى كان فيه أهل أوربا وخاصة البلاد التى تعرف الآن باسم ألمانيا والنمسا يعملون بجد ونشاط وفى أيديهم الفؤوس والمعاول فى بناء الفلك على نحو ما كان يصنع نوح لكى يعتصموا بها من الهلاك غرقاً . كان الناس يسرعون فى بناء تلك السفن وقلوبهم مملوءة فزعاً لأن واحداً من العرافين المشتغلين بعلم التنجيم ويدعى چوهان ستوفلر Johann Stoffler قد أعلن بناء على حساباته التى لا يتطرق إليها الخطأ أن فيضاناً آخر على مثال فيضان نوح سوف يجتاح أوربا بأسرها ويهلك أهلها أجمعين ، فلم يكن أمام الناس إلا أن يبحثوا عن وسيلة تعصمهم من هذا الفناء المحقق . غير أن هذا الفيضان المزعوم لم يتحقق ، بل قام عراف آخر أكثر شهرة من العراف الأول هو جورج تنستتر Tannenstetter من أهل ڤينا وأخذ يفند ادعاءات ستوفلر وأعلن أن ليس هناك ما يدل على حدوث مثل هذا الفيضان وأن نبوءة ستوفلر هذا كاذبة .

كان ذلك فى القرن السادس عشر ، أما اليوم فلو قام منجم أو عراف وأعلن مثل هذه النبوءة الخاصة بنهاية العالم لقابلها الناس بالسخرية والابتسام وقد لا يحفل بها أحد البتة إلا ضعاف القلوب والعقول ، أما فى العصور الوسطى فلم تكن مثل هذه النبوءة تمر دون أن تحدث الفزع والهلع فى قلوب الناس لأنه كانت هناك فكرة شائعة متأصلة فى النفوس وهى أن الدنيا قد قاربت نهايتها بل إن هذه الفكرة كانت فى القرن العاشر الميلادى جزءاً من العقيدة العامة التى يعتنقها أهل أوربا. لقد كان الناس فى ذلك العصر يتطلعون إلى نهاية العالم كما نتطلع نحن أبناء القرن العشرين إلى السماء انتظارًا لدلائل الغيث بعد فترة من الجفاف . وقد ذكر معظم العرافين عام ٩٩٩ على أنه التاريخ الذى سوف تحدث فيه هذه الطامة الكبرى .

كان الناس يتوقعون أن يكون يوم الحشر فى بيت المقدس لذلك كان عدد الحجاج المتجهين ناحية المشرق فى عام ٩٩٩ من الكثرة بحيث كانوا يشبهون بجيش عرمرم هائم على وجهه . لقد باع معظم هؤلاء الحجاج جميع ما يملكون من حطام الدنيا قبل أن يغادروا أوربا فى طريقهم إلى بيت المقدس وأخذوا يعيشون على دخل الأراضى المقدسة .

لقد أهمل الناس تشييد المبانى العامة أو إصلاحها إذ ما الداعى إلى ذلك ونهاية العالم أصبحت قاب قوسين أو أدنى وكانت النتيجة أن أصاب التلف والدمار الكثير من هذه المنشآت العامة بل وتهدم أغلبها ولم ينج من هذا المصير المفجع الكنائس وبيوت العبادة .

لقد اتجه إلى بيت المقدس الأمراء والفرسان ورجال الدين والعبيد والجميع يسيرون صحبة واحدة ومعهم أولادهم وأزواجهم ينشدون الأناشيد والترانيم وهم فى طريقهم وعيونهم متجهة إلى السماء فى خوف وتضرع ووجل يتوقعون فى كل لحظة أن تنفرج السماء ويهبط منها السيد المسيح .

ولما لم تحن نهاية العالم فى القرن العاشر توقع الناس من جديد أنها سوف تحين فى القرن الحادى عشر أو الثانى عشر أو بعد ذلك إذ لابد أنها آتية لا محالة. وأصبح تعلق الناس بهذه الساعة الأخيرة هو الأمل الثانى لهم بعد التعلق بالحياة . لقد أخذ المنجمون فى وقت من الأوقات يرسلون الأنباء إلى جميع البلاد معلنين أن نهاية العالم وفناء الجنس البشرى سوف يكون فى عام ١١٨٦ . غير أن هذا الحادث الجلل لم يقع وصار يؤجل من وقت لآخر وكأنه تمثيلية كبرى تؤجل الحين بعد الحين .

إن العرافين فى الوقت الحاضر ومفسرى النبوءات الكثيرة الواردة فى الكتاب المقدس أو التى ينطوى عليها سر الهرم الأكبر يقولون إن « نهاية الزمن » تعنى أنه ستكون هناك تغيرات كبيرة جوهرية فى العالم دون أن يعنى هذا نهاية العالم إنما يعنى عصراً جديداً وليس فناء العالم وكل ما فيه .

وقد ظهر قبل العهد المسيحى مجموعات من كتب التنبؤات تناولتها أيدى الصفوة المثقفة من اليهود ذوى العقول المستنيرة الذين نهلوا من الثقافة اليونانية . وكانت هذه الكتب تنبئ بمجىء عصر سوف تسود فيه العدالة بين الناس ويعيش الناس فى سلام ووئام متحابين متعاونين ، وأن الأرض سوف تخرج طيباتها من فاكهة مختلف ألوانها وأن المدن سوف تعج بالطيبين الأخيار من الناس . وسوف تخلو الأرض من الزلازل والحروب والمجاعات .

وفى صدر العصر المسيحى أضاف المسيحيون إلى هذه التنبؤات التى تبشر بالمدينة الفاضلة تنبؤات أخرى تشير إلى أن العالم سوف يمر بعصر ذهبى تسوده المحبة والرخاء والسلام .

وكان الرومان من ناحية أخرى لا يحفلون بهذه التنبؤات المختلفة وفى عهدهم ظهرت نبوءات أخرى تنبئ بزوال

الإمبراطورية الرومانية ولكنهم سخروا من هذه التنبؤات لأنهم كانوا يعتقدون أن الإمبراطورية الرومانية عبارة عن كيان أو نظام أبدى لا يمكن أن يزول ولذلك نجدهم يحفظون هذه المجموعات التنبؤية فى الكابيتول بعيدة عن متناول أيدى الناس بل إنهم سنوا من القوانين فى عام ٤٠٥ للميلاد ما تفرض الموت على من يعرف عنه أنه اطلع على هذه الكتب المليئة بأخبار الغيب. ولذلك اتخذت التنبوءات بعد ذلك فى أوربا وجهة أخرى سنذكرها فيما يلى .

إن من الأسباب التى جعلت التنبؤات فى العصور الوسطى تتسم بهذه السمة المحزنة المفزعة أن الأشخاص الذين كانوا يقرأون الكتب المقدسة كانوا يقرأونها قراءة حرفية فى لغاتها القديمة كما أنه كانت تراود أذهانهم فكرة مجىء المسيح الدجال والمسيح الدجال يعد سبباً آخر من أسباب هذا الفزع المزمن العام الذى كان يهدد أهل العصور الوسطى .

لم يكن هناك خبر عن موعد ظهور هذا المسيح الدجال غير أن نفراً من كبار العالمين ببواطن الأمور اتفقوا على أن المسيح الدجال على وشك الظهور . ونذكر أنه فى عام ٣٨٠ أعلن مارتن Martin أسقف تورز بتهيب ووقار إن المسيح

الدجال يعيش بالفعل وإن كان لا يزال صبياً . وفى عام ١٠٨٠ أى فى الوقت الذى كان فيه أهل أوربا يعتقدون فى زوال العالم — ذكر أسقف فلورنسه مؤكداً أن المسيح الدجال قد ولد . وبعد ذلك بأكثر من ثلاثة قرون أى فى عام ١٤١٢ رأى أحد كبار رجال الوعظ المسيحيين أن من واجبه أن يكتب للبابا بنديكت Benedict الثالث عشر منبئاً أن المسيح الدجال قد بلغ بالفعل التاسعة من عمره . وقال كثيرون غير هؤلاء إنهم رأوا الرؤى التى تشير إلى قرب ظهور المسيح الدجال وإنه أصبح من الضرورى أن يعد المؤمنون أنفسهم لهذا القتال الرهيب الذى على وشك الوقوع .

وتحوى بعض المؤلفات القديمة سلسلة من الصور تمثل ولادة وحياة وموت رجل الشر (المسيح الدجال) . بل إننا نجد فى عهد متأخر أى فى منتصف القرن التاسع عشر أن العرافة چوزفين لامرتين — وهى عرافة مشهورة من أهل اللورين بفرنسا — تتكهن بأن المسيح الدجال سوف يولد فى عام ١٩٠٠ ولو كانت نبوءة هذه العرافة صحيحة لكان المسيح الدجال الآن يملأ الأرض جوراً وظلماً وظلاماً .

ومهما يكن من الأمر فإنه فى تلك العصور الوسطى قد

اختلطت النبوءات الصادقة بالأخرى الكاذبة حتى كان من الصعب التفرقة بينها . والواقع أن شعور الناس بالإثم والخطيئة والانحلال قد انعكس فى صورة التنبؤ بالعقاب الذى لا مفر منه والنوازل التى سوف تحل بالبشر .

وكان هناك إلى جانب هذه النبوءات العامة التى كان يعتقد فيها المسيحيون بوجه عام نبوءات خاصة بكل دولة من الدول الأوربية .

وكانت الإمبراطورية البيزنطية التى ظلت على قيد الوجود حتى سقوط عاصمتها القسطنطينية فى يد الترك عام ١٤٥٣ غنية بصفة خاصة بهذه النبوءات .

ففى القرن الحادى عشر انتشرت فى القسطنطينية بعض النبوءات التى تنسب إلى متوديوس Methodius أسقف بطراء الذى استشهد فى أوائل القرن الرابع إبان حكم الإمبراطور ديوقلتيان . ففى ذلك العهد البعيد ظهرت بعض التنبؤات تقول إن الإسماعيليين أو العرب سوف يقهرون كثيراً من البلاد المسيحية عقاباً لرجال الدين والعلمانيين على السواء على ما ارتكبوه من خطايا وآثام . وقد ترددت على الألسن هذه النبوءات طوال قرون عدة وتحققت بالفعل بعد ذلك بأربعة قرون . وكانت

هناك نبوءة أخرى تذكر أن الترك سوف يروون ظمأ جيادهم من مياه نهر الرين . والذى حدث بعد ذلك أن المغول بقيادة جنكيز خان قد اجتاحوا آسية وأوربا فى القرن الثالث عشر وسقوا جيادهم من عدة أنهار أوربية وإن لم يكن منها نهر الرين على التحقيق .

وتنبأ الإمبراطور الفيلسوف ليو Leo فى القرن التاسع بفتح المسلمين للإمبراطورية البيزنطية وقد تحققت هذه النبوءة بالفعل بعد ذلك بستة قرون تقريباً . وقد عثر قبيل استيلاء الترك على الدولة البيزنطية فى دير بالقسطنطينية على لوحة تنسب إلى الإمبراطور ليو مبيناً بها فى تعاقب صحيح أسماء الأباطرة والبطارقة فى هذه الدولة طوال ستة قرون انتهت بزوال هذه الإمبراطورية . ويستدل من هذه اللوحة أيضاً أن قنسطنطين سوف يكون آخر أباطرة هذه الدولة . وبالفعل قد تحققت هذه النبوءة وكان الإمبراطور قنسطنطين بليولوجوس الذى لقى حتفه عند ما استولى الترك على مدينة القسطنطينية آخر أباطرة بيزنطة .

والواقع أن النبوءات لم تختفى قط من هذه الإمبراطورية البيزنطية . لقد كانت هناك تنبؤات كثيرة عن حكم الأباطرة ومستقبل الإمبراطورية منها تلك النبوءه التى ظهرت قبل عام

١٤٥٣ بقليل وجاء فيها أن العدو سوف ينقض على المدينة ويقضى على عظمتها وبهائها ويدنس معابدها ونسائها ويجعل مبانيها طعمة للنيران وذلك بسبب الدم الذى يسفك والجرائم التى ترتكب فى بيزنطة . وقد تحقق ذلك كله إبان حصار القسطنطينية ثم وقوعها فى أيدى الترك .

ومن حسن طالع الإمبراطور الفيلسوف ليو أن معظم نبوءاته قد ظهرت وعرف بها الناس بعد وفاته بزمن طويل ولذلك لم يكن هدفاً لتلك المضايقات والاعتداءات التى كثيراً ما كانت تصيب هؤلاء المتنبئين خصوصاً إذا تنبأوا بأشياء لم تصادف هوى فى نفوس الناس . وبهذه المناسبة نذكر حالة نبوءة من النبوءات كان جزاء قائلها الموت حرقاً .

حدث فى ربيع عام ١٥١٧ أن ظهر فى روما — وكانت الأمور فيها تسير على أحسن ما يكون — راهب فقير أخذ يجوب شوارع هذه المدينة العظيمة صائحاً : « الويل الويل لهذه المدينة التى سوف تقع فريسة فى أيدى الأمم فيما وراء الألب لهذه الخطايا المنكرة التى يرتكبها البابوات والأساقفة . »

لقد كانت روما فى ذلك الوقت مدينة مزدهرة يعمها الرخاء والأمن والسلام إذ لم تكن قد تعرضت لأية غزوة خارجية منذ

أكثر من خمسة قرون . وكانت فى ذلك الوقت تزدحم بالسكان والتجار والكهنة وجنود البابا والحراس والأساقفة . وكان البابا كليمنت الثامن يتربع على عرش البابوية فى قصره المنيف والعالم كله فى أمن وسلام . وها هو ، راهب خرب العقل كانت له الجرأة أن يسير فى طرقات هذه المدينة العظيمة وينادى بالويل والثبور ويتنبأ بدمارها والقضاء عليها . وما أن سمع البابا بخبر هذا الراهب حتى قبض عليه وزج به فى السجن ، ثم أفرج عنه بعد فترة قصيرة ولكن على شرط أن يغادر المدينة على الفور بحيث إذا عاد إليها ثانية أغرق فى مياه نهر التيبر .

عاد بعد ذلك الراهب — وكان يدعى بارتلوميو براندانو — مرة ثانية إلى روما وصنع نفس الأمر الذى صنعه من قبل منادياً بانتقام إلهى عادل من المدينة ورجال الدين ناعتاً البابا كليمنت بأحقر الصفات . وكان أن قبض ثانية على هذا الراهب وألقى به فى نهر التيبر ولكنه لم يغرق فأمسك به وزج فى السجن .

وقد حدث بعد ذلك بعشر سنوات أن أغار جماعة من الجنود المرتزقة للإمبراطور شارل الخامس تحت قيادة شارل ده بربون على مدينة روما وقاموا بالكثير من أعمال السلب والنهب والتقتيل . وكان أن اضطر البابا كليمنت إلى عقد

معاهدة تسليم مخزية مع الإمبراطور شارل . وأطلق جنوده سراح الراهب براندانو بعد أن ظل فى سجنه سنوات عدة لقى فيها الكثير من أنواع التعذيب والإرهاق نتيجة لهذه النبوءة التى قال بها، ولعل البابا كليمنت نفسه قد جال فى خاطره ذكرى هذا الراهب عند ما وقعت الواقعة وشاهد مدينة روما نهباً مستساغاً لهذه الطغمة من الجنود المرتزقة .

كانت هناك نبوءات كثيرة مثل هذه تدور على الألسن أكثر من ألف عام وكلها تدور حول مصير روما وأهلها لذلك كان نهب مدينة روما على يد شارل ده بربون أمرًا متوقعاً .

والواقع أن هذه التنبؤات التى صدرت ضد روما إنما كانت موجهة إليها على اعتبار أنها ترمز إلى الكنيسة والبابوية ، ولم تكن هذه التنبؤات تصدر عن عرافين محترفين فحسب بل كانت تصدر أيضاً عن رجال من أهل الكنيسة تنبأوا بما سوف يحل بالكنيسة من السخط والهوان للذنوب والخطايا التى وقع فيها رجالها كالمتاجرة بالرتب الكهنوتية والانغماس فى الملاذ والترف وهى الخطايا التى وقع فيها كثير من البابوات ورجال الدين .

ومن المعروف أن روجر باكون (١٢٦٧) الراهب الإنجليزى والعالم الشهير وكذلك دانتى كان كل منهما يعتقد

فى أن تغيراً مفاجئا سوف يطرأ على الكنيسة يؤدى بها إلى حالة أفضل وأحسن . وقد تنبأ باكون بأن كاهناً ورعاً سوف يقوم بهذا التغيير .

ويغلب على الظن أن معظم العرافين والمتنبئين الذين قالوا بهذه التنبؤات المتصلة بالكنيسة كانوا متأثرين بنبوءات عراف شهير ظهر فى العصور الوسطى وكان له أثر كبير على غيره من المتنبئين ذلك هو العراف جوشم . Joachim

لقد توقف الملك ريتشارد قلب الأسد إبان حملة له على الأراضى المقدسة لمحاربة صلاح الدين الأيوبى ، فى مدينة فيور من أعمال مقاطعة كلابريا بإيطاليا لاستشارة رجل كان يعد فى ذلك الوقت أعظم متنبئ ظهر منذ عهد الرسل . لقد كان هذا الرجل على جانب كبير من الورع والتقوى وصفاء النفس وكانت شهرته كمتنبئ قد عمت جميع العالم المسيحى . هذا الرجل هو جوشم وهو راهب بندكتينى انفصل عن طائفته وأنشأ له ديراً خاصاًبه فى فيور . وعلى الرغم من أن هذا الراهب قد تنبأ بأشياء كثيرة فى غير صالح البابوية إلا أن البابوات مع ذلك قد بسطوا عليه حمايتهم وجعلوه تحت رعايتهم. وكان هذا الراهب يقول إنه لم يمنح هبة الكشف عن الغيب إنما

منح هبة الفهم والإدراك . وهو يذكر فى إحدى كتبه كيف أنه تاه فى ميدان التأمل والتفكير فى ليلة عيد الفصح فشعر أن شعاعاً من الضوء اللامع قد نفذ إلى أعماق نفسه وأن إلهاماً إلهيا قد حل به فجعل كل أسرار الكتب المقدسة واضحة أمامه كما كانت واضحة أمام الرسل والأنبياء .

لقد تنبأ جوشم هذا بالمسيح الدجال وأخبر ريتشاردقلب الأسد أن هذا المسيح الدجال سوف يعتلى سريعاً الكرسى البابوى .

وبعد وفاة جوشم هذا أخذت الطبقة المثقفة من الناس تستمع إلى الدروس التى تفسر فيها نبوءات هذا الراهب الكبير إذ كانت هذه النبوءات تدرس كما يدرس الكتاب المقدس . وقد ذكر جوشم فى كتبه أن العصر الكبير الأول من تاريخ العالم هو عصر الأب أى ما قبل العهد المسيحى أما العصر الثانى فهو عصر الابن ويمتد حتى عام ١٢٦٠ للميلاد أما العصر الثالث فهو عصر الطيف المقدس ويبدأ من عام ١٦٢٠ ويتضمن تغييرا وتطهيراً شاملا للكنيسة. وكان يرى أن الكنيسة قد انغمست فى الشهوات وغدت وكرا للصوص ومن ثم احتقر الناس رجال الدين .

وكانت هناك غير ذلك نبوءات كثيرة ضد الكنيسة يتداولها الناس فى كل مكان وقد أفصح عنها كل من دانتى ومكيافلى فى كتاباتهما . ولعل أبرز شخصية ظهرت بعد ذلك فى ميدان التنبؤ بالغيب هى شخصية ساڤونارولا الذى تنبأ بأشياء كثيرة تحققت كلها تقريباً . مثال ذلك أنه تنبأ بطرد أسرة ده مديسى الشهيرة من فلورنسه وقد تحقق ذلك . وتنبأ بالغزو الفرنسى لإيطاليا فى عهد شارل الثامن ملك فرنسا وقد تحقق ذلك ، كما تنبأ أيضاً بدمار روما تدميراً تاماً بالنيران بسبب فسوق أهلها وهذا أمر لم يتحقق اللهم إلا إذا اعتبرنا نهب روما على يد ده بوربون بعد موت ساڤونا رولا بتسع وعشرين سنة تحقيقاً لهذه النبوءة .

لقد كان هذا الراهب الدومينيكى العجيب يرى الرؤى الصادقة و يسمع الهواتف العلوية ، فقد شاهد فى مساء الجمعة الحزينة من عام ١٤٩٢ رؤيا هى عبارة عن صليبين هائلين ورأى سيفاً يتدلى من السماء فوق إيطاليا وغير ذلك من الرؤى . وقد ذاع صيت هذا الراهب حتى أصبح المتسلط على أهل فلورنسه .

غير أن أعداءه وحاسديه قد أخذوا يتزايدون فكان أن

سجن وعذب واستخلص منه عن طريق التعذيب اعترافاً ينكر فيه ادعاءه أن له قوى تكشف عن الغيب فحوكم محاكمة صورية حكم عليه بعدها بالموت حرقاً . فنى الثالث والعشرين من شهر مايو عام ١٤٩٨ وبحضور مندوبين عن البابا اسكندر السادس الذى نعته ساڤوناﺭولا بالشيطان جرد ساڤوناﺭولا من ردائه الكهنوتى وتلى عليه الحكم بالإعدام هو واثنين من أتباعه المقربين إليه . وقد شنق الثلاثة وأحرقت جثثهم وهى معلقة فى المشانق .

ويعد ساڤوناﺭولا اليوم عند الكثيرين من القديسين والشهداء والمتنبئين الصادقين فى نبوءاتهم .

وقد يكون ميشيل نستراداموس هو أعظم المتنبئين الذين ظهروا فى القارة الأوربية Michel Nostradamus وقد احتل هذا المتنبئ مكانة مرموقة لم يرق إليها أحد غيره من مشاهير القرن السادس عشر عصر النهضة الزاهر ، وكانت له قدرة عجيبة على التنبؤ بالغيب ، فما أن ذاع صيته فى هذا الميدان حتى أخذت أوربا كلها تتحدث عنه وأرسل إليه الملوك والأمراء يدعونه ليقرأ لهم ما يخبئه لهم المستقبل من أحداث ، وحج العظماء إلى بلدته سالون Salon من مقاطعة بروڤانس بفرنسا ليكشف لهم ما خفى عنهم من أمور وأحداث .

لقد درس نستراداموس هذا الطب وكانت له مقدرة فائقة فى معالجة المرضى الذين كانوا يقعون صرعى للطواعين التى كانت تجتاح أوربا من حين لآخر إبان القرن السادس عشر حتى كثر حساده من الأطباء فأذاعوا عنه أنه يشتغل بالسحر والعلوم الخفية . والواقع أن نستراداموس كان يقضى معظم أيامه فى الطبقة العليا من منزله وسط مجلدات ضخمة مكتوبة بلغات متعددة وحوله أدوات كثيرة مما يستخدمها المنجمون والسحرة كالأسطرلاب والمرايا السحرية . ويذكر نستراداموس نفسه أنه قد أحرق بعض الكتب المصرية القديمة بعد أن حفظ محتوياتها عن ظهر قلب وقد ورث هذه الكتب عن أجداده وكانت تحوى كثيراً من علوم المصريين والمجوس .

وقد زار نستراداموس كثيراً من البلاد الأوربية واجتمع بمشاهير العلماء والمشتغلين بالكيمياء والتنجيم وتباحث وإياهم فى شتى الموضوعات العلمية .

وحدث أثناء زيارته لمدن إيطاليا أن شاهد فى إحدى القرى الصغيرة راهباً فرنسيسكياً يدعى فيلكس بيرتى Felix Peretti فما أن رآه حتى ركع نستراداموس أمام هذا الراهب بكل خشوع واحترام ولما سأله فى ذلك الرهبان الآخرون أجابهم : إنى أركع

أمام قداسته . غير أن الرهبان لم يهتموا بهذه النبوءة لأن بيرتى هذا لم يكن يمتاز عنهم بشيء البتة ولكن هذا الراهب القروى قد أخذ يرقى المناصب الكهنوتية الواحد بعد الآخر حتى ولى العرش البابوى عام ١٥٨٥ ولقب بـ « سكتوس السادس »

وكان نسترادادموس هذا ينشر تنبؤاته فى شكل رباعيات شعرية وقد نشرت لأول مرة فى عام ١٥٥٥ وتضمنت كثيراً من النبوءات التى تحققت على مر الأيام منها مقتل شارل الأول ملك انجلترا وثورة أوليفر كرومويل ومقتل لويس السادس عشر ملك فرنسا والثورة الفرنسية ومجيء نابليون بونابارت وغير ذلك من الأحداث العالمية الشهيرة .

وقد أصيب نسترادادموس فى أواخر أيامه بمرض الاستسقاء وثقل عليه المرض فاعتكف فى بيته لا يرى أحداً من الناس إلا تلميذه الوفى شافنى Chavigny وإثنين أو ثلاثة من أصدقائه المقربين. وقد أوصى أن يدفن واقفاً فى كنيسة الفرنسيسكان حتى لا يطأ أحد على عظامه .

وفى مساء اليوم الأول من شهر يوليه سنة ١٥٦٦ تركه تلميذه شافنى بعد أن ألقى عليه تحية المساء والعبارة المألوفة : « إلى الغد يا أستاذ » ولكن نسترادادموس هز رأسه بحزن وتمتم

قائلا : فى الغد عند شروق الشمس سوف لا أكون موجوداً .

وفى الصباح كان نستراداموس جثة هامدة فوق مقعده .

ولقد بكاه أهل بلدته طويلا وكانوا يعتقدون أن نسترادادموس لم يمت ولكنه اعتزل الحياة ليتابع دراساته ، ونقش على الحائط الذى يضم رفاته هذه الجملة : « لا تعكر سلام الموتى » ثم أضافت إليها زوجه : « هنا ترقد عظام ميشيل نسترادادموس الشهير الوحيد فى رأى جميع البشر الذى يسجل بقلمه المقدس أحداث العالم المستقبلة وفقاً لتأثير الكواكب » .

ولقد توفى نسترادادموس بالغاً من العمر اثنين وستين عاماً وستة شهور وسبعة عشر يوماً .

الفصل السادس

الأحلام والتنبؤ بالغيب

لقد كثر الكلام عن الأحلام وعلاقتها بالتنبؤ بالغيب وانبرى نفر من العلماء المبرزين لدراسة هذه الظاهرة العجيبة ووضعوا فيها الكتب والمطولات وضمنوها كثيراً من الأحلام التى تحققت عن آخرها .

ولعل أشهر من قام بهذه الدراسة هو الفلكى الفرنسى الشهير « كاميل فلاماريون » فى كتابه « لغز الحياة النفسية » The Riddleof Soul Life إذ كان من المؤمنين بأن هناك رؤى صادقة تتحقق عن آخرها فى العالم المحسوس . ومن الأمثلة التى أوردها فى كتابه المذكور تلك الحادثة التى ذكرها على لسان شاهدة معتمدة موثوق بكلامها إذ قالت :

« حوالى أواخر شهر نوفمبر من عام ١٨٧١ وأعتقد أن ذلك كان فى يوم الأربعاء الموافق الثانى والعشرين من نوفمبر ، كنت فى ضيافة أسرة المستر دافيدسن فى نيوأورليانز ، وقد

حضر لزيارته نفر من الأصدقاء من بينهم مدام ثلتون وقد قصت على الحاضرين عدة أحلام رأتها فى منامها وقالت أن هذه الأحلام قد تحققت عن آخرها ، ولكن الحاضرين لم يكونوا فى مركز يسمح لهم بالتحقق من صدق ما ذكرته هذه السيدة . وبعد أن أفاضت فى ذكر أحلامها التى تحققت سألها المضيف :

إنى أسألك يا مدام ثلتون هل رأيت فى منامك حلماً يتصل بى ؟

فقالت : « إننى رأيت البارحة فقط يا مستر دافيد سن حلماً يتصل بك » .

وقد سألها الحاضرون بلهفة أن تقص عليهم ما رأته فى حلمها .

فقالت : « لقد رأيت فى منامى أننى سوف أعود لزيارتكم لدعوة عاجلة وذلك بعد ستة أسابيع من اليوم .

فقال المضيف : « إن هذا الحلم من السهل تحققه » ثم مال على أحد الحاضرين وقال : « أرجو أن تذكر لنا متى سيكون ذلك اليوم الموعود ؟ » وعند ذلك أخرج أحد الحاضرين

مفكرته وقال إنه سيكون فى يوم الأربعاء الثالث من شهر يناير عام ١٨٧٢ .

« حسناً سوف نختبر جميعاً صدق أحلام هذه السيدة .

وعند ذلك تابعت مدام ثلتون الحديث قائلة : « مهلا أيها السادة . إننى رأيت فى منامى أيضاً أننى عند ما دخلت البيت وجدته خالياً وبحثت من المستر داڤيدسن ولكنى لم أجده وأخيراً رأيت وسط قاعة الاستقبال تابوتاً معدنياً كبيراً . وكان غطاء التابوت محكماً ولم أر شيئاً آخر إلى جانب ذلك ولكنى أدركت أنك مسجى داخل هذا التابوت » .

وعند ذلك انفجر المضيف ضاحكاً وشاركه فى ضحكه جميع الحاضرين ثم وجه داڤيدسن الكلام إلى زوجه متهكماً :

« إنى أرجو منك تابوتاً غير معدنى لأنى لا أحب التوابيت المعدنية ، إنى أريد تابوتاً بسيطاً من الخشب » .

وقد وعدته زوجه بذلك ضاحكة وقالت إنها سوف تلبى رغبته فى حالة ما إذا كانت ستخلفه .

ثم تابعت مدام ثلتون الحديث قائلة : « إننى لم أشاهد سوى سيدة واحدة فى قاعة الاستقبال فوقفت إلى جوارها . وكان منقوشاً على غطاء التابوت ست ورود فضية . »

وقد ضحك الجميع أيضاً من هذه الحلية العجيبة ولكن مدام ثلتون ظلت على هدوئها وقالت : « ولقد عجبت أنا أيضاً عند ما شاهدت ذلك فى الحلم » .

ولقد تفرقنا بعد ذلك بعد أن تواعدنا على أن نلتقى ثانية يوم الأربعاء الثالث من شهر يناير كما جاء فى حديث هذه السيدة .

وحدث فى اليوم الثانى من شهر يناير عام ١٨٧٢ حادث محزن للمستر دافيدسن إذ دهمته قاطرة فأزهقت روحه .

وفى صباح اليوم التالى وضع جثمانه فى تابوت . وقد رغبت أسرته فى أن لا يرى أحد وجهه المشوه نتيجة لهذا الحادث . وقد آليت على نفسى أن أمكث إلى جوار هذا التابوت وظللت فى مكانى حتى بعد أن أحكم غلق التابوت .

وقد حضرت مدام ثلتون إلى المنزل فى اليوم الموعود فوجدت التابوت فى قاعة الاستقبال وليس إلى جانبه سواى . فجاءت ووقفت إلى جانبى وظللنا نحن الاثنتان وقوفاً إلى جانب التابوت دون أن تنظر واحدة منا إلى الأخرى . وفجأة لمست مدام ثلتون يدى وأشارت إلى ست وردات فضية تزين غطاء التابوت المعدنى فنظرت إليها متسائلة فتمتمت قائلة : « ألا تذكرى الوردات الست الفضية التى رأيتها فى منامى بوضوح ؟ »

وبعد ذلك بأسبوعين قالت لى أرملة المستر دافيدسن :

« ألا تذكرى ذلك الحلم العجيب إن كل شيء قد تحقق كما رأت صديقتنا فى منامها حتى التابوت فانى لم أنس فى حزنى وصية زوجى التى أوصانى بها . ولقد سألت الحانوتى عن السبب الذى من أجله أحضر هذا التابوت المعدنى على الرغم من طلبى إعداد تابوت خشبى فعلمت أنه لم يكن من الممكن العثور على تابوت خشبى بالمقاس المطلوب فلم يجد سوى هذا التابوت المعدنى فاضطر تحت ضغط الظروف إلى استخدامه . » ولقد قام المستر فلاماريون بالتحقق من صدق هذه الرواية بنفسه وكان لا يزال من شهودها الثلاثة عشر تسعة أشخاص على قيد الوجود فأكدوا جميعاً ما سمعوه من مدام ثلتون وما كان من تحقق حلمها عن آخره .

وهناك حادثة أخرى ذكرها هنريش كارل بروش Heinrich Karl Brugsch أحد علماء الآثار المصرية فى القرن التاسع عشر فى مذكراته وهى تتصل بحلم رآه الخديو إسماعيل عام ١٨٧٥ حيث قال :

« لقد كنت فى طريقى إلى جوتنجن لتوديع أسرتى التى كانت تعيش هناك على أن أبحر بعد ذلك مباشرة من ميناء بريمن على ظهر إحدى السفن . وعندما كنت فى طريقى إلى محطة السكة الحديد لأركب القطار الذاهب إلى بريمن تلقيت

برقية ففتحتها على الفور لأرى مضمونها قبل أن أركب القطار . وقد كانت هذه البرقية قصيرة وحاسمة :

« إن الخديو يرجوك العودة إلى القاهرة على الفور » .

فأخذت أول قطار ذاهب إلى تريستا لأركب أول باخرة ذاهبة إلى مصر . ولما كنت لم أقرأ أية صحيفةمن الصحف منذ أن غادرت جوتنجن فقد عجبت أشد العجب عند ما أخبرنى ربان السفينة التى ركبتها إلى مصر أن آخر سفينة غادرت بريمن وهى التى كنت عازماً على ركوبها لو كنت قد سافرت إلى بريمن قد حدث بها انفجار هائل قتل وجرح الكثيرين من ركابها . فشكرت الله على أن دعوتى إلى الذهاب إلى مصر قد أنجتنى من شر كنت معرضاً له من جراء هذا الانفجار .

ولما وصلت إلى القاهرة ذهبت على التو لمقابلة الخديو إسماعيل حسب أوامره وكنت متوقعاً أن أتلقى منه بعض التوجيهات الخاصة التى كان يجب أن يوجهها إلى بنفسه ولكننى لم أسمع منه إلا أنه سعيد أن يرانى سليما معافياً وأنه ليس لديه ما يقوله أكثر من ذلك .

لقد رأى الخديو أن يستدعينى عن طريق هذه البرقية وذلك بسبب حلم رآه ذات ليلة جعله يطلبنى على جناح السرعة

وإلا حل بى شر يتربص بى » .

والواقع أن هناك كثيرين من الناس يرون الرؤى فتتحقق كما رؤوها فى منامهم الأمر الذى دعى الكثير من الفلاسفة والمفكرين إلى تحليل هذه الظاهرة العجيبة والإفاضة فى تفسيرها.

ولم يكن حظ فلاسفة المسلمين من هذه المسألة بقليل بل إنهم أفاضوا الكلام فى الرؤيا الصادقة وجعلوا هناك صلة قوية بين الرؤيا الصادقة والتنبؤ بالغيب استناداً على القول بأن الله يطلع عباده على غيبه سواء أكانوا فى يقظة أم فى منام : وهم يذهبون إلى أن الحلم إذا تحقق فى الواقع كان هذا الحلم عبارة عن رؤيا صادقة ، أما إذا لم يتحقق فهو عبارة عن أضغاث أحلام ووسوسة شيطان لا تقبل تأويلا ولا تستحق اهتماماً وهذا هو ما عليه أكثر المفكرين المسلمين .

وقد صنف الفلاسفة والمتكلمون الرؤيا على أصناف فقالوا إن بعضها ما يكون من وحى الله والبعض الآخر من إلهام الملائكة كما أن المرموز منها الذى يعوزه التعبير يكون من الملك أو من الأرواح فيما يقول البعض .

وقد جاء فى الصحيحين عن النبى أنه قال :

« الرؤيا ثلاثة : رؤيا من الله ورؤيا من الشيطان ورؤيا

ما يحدث المرء به نفسه فى اليقظة فيراه فى المنام » .

وقد عزى رجال الشرع الرؤيا الصادقة إلى الله القادر على كل شىء فهو يخلق فى قلب النائم أو فى حواسه الأشياء ، كما يخلقها فى اليقظان وهو سبحانه يفعل ما يشاء فلا يمنعه من ذلك نوم ولا غيره وربما يقع ذلك فى اليقظة كما يتراءى فى المنام.

وذهب آخرون إلى أن الرؤيا الصادقة تقع للمرء وهو نائم ذاهل العقل والحس معاً ، إلا أن النائم وإن ذهب عقله الذى به يتعقل ويفهم وحسه الذى به يدرك صور المحسوسات فإن نفسه تكون يقظة منتبهة تقوى على التعقل والفهم وتقوم مقام الحواس من سمع وبصر ولمس ونحوه فى نقل آثار الجزئيات . ذلك أن روح النائم تسرح فى الدنيا وتمتد منبسطة خارج الجسد وإن لبث جزء منها على اتصال به فتدرك فى النوم مكنونات الغيب المحجب .

وقيل إنها ترحل عن الجسد إلى عوالم الغيب فإن تيقظ النائم فجأة قبل أن تعود من رحلتها أدركه الجنون . وقيل بل تصعد الأرواح إلى السماء السابعة حتى تقف بين يدى الله ويأذن لها فى السجود . فإذا سجدت بشر الطاهر منها بالغيب فيراه النائم بروحه ويتفهمه بقلبه .

أما الصوفية فعندهم أن النفس من عالم المجردات والمعقولات فهى تستطيع أن تدرك المدركات التى من جنسها إذا لم يشغلها شاغل من علائق البدن فإذا قويت بالفضائل الروحانية وضعف سلطان القوى البدنية اتصلت النفس بأبيها المقدس وبالنفوس الفلكية وتلقت عنها المغيبات كما يقع لها هذا فى يقظتها .

وفى الحديث النبوى : «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ولكن لا يشعرون» .

وهذا شاهد عدل على أن يقظة الوجود نوم ولكن الناس يحسبون وهماً أن المعرفة تقع إبان اليقظة ، مع أن المرء لا يعرف خلالها شيئاً من عالم الغيب وما يبصره بين النوم واليقظة أولى بالمعرفة مما يدرك عن طريق الحواس. واللوح المحفوظ مرآة نقشت عليها المقادير بغير حروف ولو ظهرت تجاهها مرآة أخرى لا نكشف فيها صور الأولى إلا إذا قام بينهما حجاب . وليست المرآة الثانية إلا القلب والحجاب هو الشهوات والحواس . ويتجلى هذا فى اليقظة أما النوم ففيه يرتفع الحجاب ويزول وبذلك تظهر فى مرآة القلب صور اللوح المحفوظ وتنكشف للنفس آفاق المجهول ، فإذا سلمنا بأن النفس تكون عند النوم فى أعظم حالاتها زال العجب من وقوع العلم بالغيب إبانه ولكن الرؤيا

لا تقع لكل نائم ولا تجيء فى كل نوم إنما تعرض للمؤمنين عن طريق الملائكة . فأما المؤمنون فإن نفوسهم قد صفت وتحررت من ضغط الأفكار الفاسدة وصدق الرؤيا يكون بمقدار ما يكون هذا الصفاء .

و يختلف الصوفية فى تقدير الرؤيا فهم يضعوها دون الولاية حيناً وفى مرتبتها أحياناً فهى عند بعضهم نوع من الكرامات التى تقع للأولياء . والنفس التى تقوى على إدراكها متى عظمت وترقت فى مجال الروحانيات أضحى صاحبها ولياً وهكذا يدرك فى اليقظة متى قوى الأمر عنده — ما يدركه النائم فى نومه ولئن كان هذا نادراً إلا أنه يقع لأهل الطريق ولا يشمل الناس جميعاً فإنهم يعجزون عن احتمال ملك الإلهام الذى يهبط على الأولياء أيقاظاً فيهبط على سائر البشر نياماً وإن جرت العادة فيما يرى البعض أن يسمى وحى الإلهام رؤيا إن وقع أثناء النوم وتخيلا إن جاء إبان اليقظة .

ولعل ما ذكره ابن خلدون فى هذا المقام يعد نموذجاً لهذا النوع من التفكير فقد ذكر فى مقدمته :

« للعقل نطاق يحسن التفكير فى مجاله ، إنه يدرك العلم الذى يستند إلى المشاهدة ، ويعتمد على التفكير النظرى ،

هذه هي مدارك العلماء فإن تجاوز العقل هذا النطاق إلى ما وراءه ضل سبيلا . ووراء العقل نطاق يرتاد المرء مجاهله بنوع من الإدراك فوق مدارك البشر ، وهو يتوافر فى الأنبياء ويتهيأ للأولياء ومع الناس نموذج منه يبتدىء فيما يقع لهم من صادق الأحلام وهم نيام . واهتداء النفوس إلى هذا العالم العلوى غير عسير لأن فى النفس البشرية استعداداً للانسلاخ من البشرية إلى الملكية لتصير ملكاً بالفعل فى لمحة من اللمحات وعندئذ تتجه إلى الملأ الأعلى وتتصل به فطرة لا اكتساباً . وبهذا تتجاوز مثل هذه النفوس مرتبة العلماء الذين يعجزون بطبعهم عن بلوغ الإدراك الروحانى لاتصالهم بالمدارك الحسية الخيالية التى تؤدى إلى اكتساب العلوم التصورية والتصديقية مما ينتهى بالأوليات ولا يتجاوز نطاقها فإذا ترقت النفس تجاوزت هذا المجال واتجهت بالحركة الفكرية نحو العقل الروحانى والإدراك الذى لا يفتقر إلى إدراك الحس فيتسع نطاق إدراكها بالفطرة حتى يتجاوز الأوليات التى يقف عندها الإدراك البشرى الأول إلى فضاء المشاهدات الباطنية وتلك هى مدارك الأولياء أصحاب العلوم اللدنية والمعارف الربانية ويظفر بها أهل السعادة فى البرزخ بعد مماتهم . وقد ترقى النفس المفطورة على الانسلاخ من البشرية — جسمانيتها وروحانيتها —

إلى الملائكة من الأفق الأعلى لتصير فى لمحة من اللمحات ملكاً بالفعل ، فتشهد أهل الملأ الأعلى فى أفقهم وتستمتع إلى الكلام النفسى والخطاب الإلهى فى تلك اللمحة وتلك هى نفوس الأنبياء فى حال الوحى التى فطروا عليها ولم يظفروا بها صناعة واكتساباً .

فالنفس ذات روحانية مدركة من غير آلات بدنية وأدوات حسية وتكون عندئذ أقل فى الدرجة من نفوس الملائكة أهل الأفق العالى الذين لم يستكملوا ذواتهم بشىء من مدارك البدن أو غيره . وهذا الاستعداد السالف يقوم فى النفس ما دامت فى البدن وهو على صنفين . صنف يتهيأ للأولياء وآخر عام فى البشر جميعاً وهو الرؤيا الصادقة . أما الاستعداد الذى يتهيأ للأنبياء فإنه يكون بانسلاخ النفس من البشرية إلى الملكية المحضة وهى أعلى الروحانيات . »

ونجد مثل ذلك عند الغزالى فهو يصرح بأن الرؤيا طور ضعيف من أطوار النبوة وبينها وبين النبوة مرتبة واضحة المعالم يقوم فيها إلهام الأولياء الذى يعتبر ضعيفاً بالإضافة إلى الوحى النبوى قوياً بالقياس إلى وحى الرؤيا .

ويذهب الفلاسفة إلى أن الحواس تنقل للنفس صور

المحسوسات فتنشغل النفس بالتفكير فيها إبان اليقظة ، فإذا وقع النوم تعطلت الحواس عن تأدية وظيفتها فتفرغ النفس من هذا التفكر وتنصرف إلى ما وراء الحس من جواهر روحانية شريفة عقلية وهى اللوح المحفوظ عند رجال الشرع — وفيها تنقش صور الموجودات كلها : فإذا اتصلت النفس انطبعت فيها بما تحمل هذه الجواهر من مكنونات الغيب ولا سيما ما كان يعنى النفس منها .

وقد تصدق الصورة الجزئية التى تقع للنفس من غير حاجة إلى تعبير ، وربما بدلت المخيلة بها مثلا يعوزه التعبير ليتكشف عن حقيقة معناه . وهم يقولون بأن من عناية الله بالإنسان أن يقع الإنذار فى الرؤيا إذ المقصود به أن يستعد المرء لملاقاة المستقبل ويتهيأ لدفع شره ، هكذا أشار يوسف على ملك مصر بأن يستعد للسنين السبع المجدبة بعد أن رأى الملك فى منامه سبع بقرات سمان تأكلهن سبع عجاف مهازيل وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات .

على أنه لا يبعد أن يقع الإنذار عن الماضى والحاضر متى كان مجهولا لنا وهو أكثر ما يكون فى الأمور المستقبلة التى يختص إدراكها بالقوى الفكرية الجزئية التى تفيد فى

معرفة الضار والنافع من مقبل الأمور .

والخلاصة أن مفكرى الإسلام قد انتهوا إلى أن للنيام القدرة على الاتصال بالعقل الفعال متى قويت المخيلة عندهم فإن أفرطت المخيلة فى قوتها تيسر لهم هذا الاتصال إبان اليقظة وكان التنبؤ ويقع هذا للأنبياء والواصلين من الأولياء .

ومهما يكن من الأمر فهناك كثير من الناس ممن يوثق فى صدق رواياتهم قد رأوا فى منامهم رؤى كثيرة تحققت فى العالم المحسوس . وقد قيل إن أم الإمام الشافعى قد رأت فى منامها بعد أن حملت به أن المشترى خرج من فرجها وانقض بمصر ثم تفرق فى كل بلد قطعة . فقال المعبرون إن ابنها سيكون عالماً فذاً فى مصر ينشر علمه فى أكثر البلاد طولا وعرضاً فكان الأمر كما قالوا .

وذكروا أيضاً أن السيدة عائشة رأت سقوط ثلاثة أقمار فى حجرتها فعبر أبوها رؤياها بموته وموت الرسول والفاروق عمر بن الخطاب ودفنهم فى حجرتها جميعاً . وقد صح فيما بعد هذا التعبير .

وقد فاخر الشعرانى — وهو من المتصوفة المشهورين — بوقوع كثير من الرؤى له . من ذلك أنه كان وصياً على أبناء

أخيه فحرم عليهم مغادرة حجرتهم ، فرأى فى تلك الليلة الشيخ أمين الدين يفتح لهم باباً فى خلوته ليخرجوا منه فأدرك أنه أخطأ فى أمره السالف وعدل عنه .

وكان إذا اغتاب أحد شخصاً بحضرته وساورته الشكوك فيما سمع رأى فى ليله من اغتيب يلبس البياض فيدرك كذب المغتاب .

وقد روى الرحالة لين Lane فى كتابه «عادات وشمائل المصريين المحدثين» The Manners and Customs of modern Egyptians أن الإمام الشيخ المهدى قد قص عليه قصة خلاصتها أن أحد الأولياء عند العامة وهو الشيخ أحمد البهى – كان يحضر دروس الشيخ الأمير الكبير فسمعه يؤرخ حياة الحسين ويعقب قائلا إن رأسه غير موجود بالمشهد الحسينى المعروف فى القاهرة وكان البهى يعتقد غير ذلك فآلمه ما سمع ولكنه لم يعترض على الشيخ احتراماً لشهرته وتقديراً لغزارة مادته . وعند انتهاء الدرس إنطلق إلى بيته وأقام الصلاة ودعا ربه – وهو جاث على ركبتيه – أن يريه رسول الله فى رؤيا صادقة يعرف منها حقيقة هذه المسألة ، فلما استسلم للنوم رأى أنه فى الطريق إلى زيارة المشهد الحسينى فلما دنا من قبته رأى النور يشع منها فدخل

المزار ، فرأى شريفاً طلب إليه — بعد تبادل التحية — أن يقرىء رسول الله السلام ؛ فنظر إلى القبلة فرأى الرسول عليه الصلاة والسلام جالساً على عرشه ، وقد وقف رجل عن يمينه وآخر عن يساره فجهر بقوله . السلام عليك يا رسول الله وكررها ثلاث مرات والدمع يجرى على خديه ؛ وسمع الرسول يقول له : أدن منى فقاده الشريف وأجلسه فى حضرته ؛ فحياه الشيخ ورد الرسول تحيته ، وقال عوضك الله خيراً عن زيارتك يا بنى . فقال له : يا رسول الله ، هل رأس الحسين موجود هنا ؟ فأجاب الرسول بالإيجاب . فامتلا الرجل غبطة وطمأنينة واستأذن الرسول فى أن يقص عليه ما قرره شيخه الأمير فى درسه . فلما سمع الرسول قصته ؛ طأطأ إلى الأرض رأسه ، ثم رفعه وقال إن الناقل مغفور له . فأحس الشيخ وكأن كيانه يهتز من فرط الرضا والغبطة فاستيقظ من نومه وانطلق مسرعاً إلى دار شيخه الأمير . فلما بلغ الباب دقه بعنف أفزع سكان البيت . ولما دخل الفناء أخذ ينادى شيخه بأعلا صوته فلما علم الشيخ بصاحب الصوت أدهشه مجيئه فى هذا الوقت المبكر وظن سوءاً . وأخذ البهى من فرط التأثر يحدث شيخه دون أن يقرئه السلام أو يقبل يده كما جرت عادته معه .

وقص رؤياه منبئاً شيخه بأن الشريف الذى كان بالباب هو الإمام على ، والواقف عن يمين الرسول هو أبو بكر . والواقف عن يساره عمر ، وأنهم كانوا فى زيارة الحسين . ولما دخل القبة قال : « السلام عليك يا ابن بنت رسول الله ، إنى أومن بأن رأسك الكريم مدفون هنا ، ورؤيا النبى شاهدة على ذلك لأن رؤيا الرسول حق » .

هذا ولم يكن الاعتقاد فى الرؤى وقفاً على العرب أو المسلمين بل شاركهم فى هذا الاعتقاد كثير من الأمم القديمة . فقد كان الإغريق يرون أن الأحلام هى من فعل الإله زيوس كبير الآلهة . وقد ذكر هذا هوميروس فى إلياذته أكثر من مرة ، كما انتشر هذا الاعتقاد فى جميع بلاد الإغريق .

وكان للمصريين القدماء إله للأحلام هو « بس» Bess وقد نقشت صورته على كثير من الوسائد التى يضع المصريون عليها رؤوسهم . وكان للبابليين أيضاً إله الأحلام هو الإله « ماخر » وكذلك كان لمعظم الشعوب القديمة آلهة خاصة للأحلام على اعتبار أن هذه الآلهة هى الباعثة على ما يراه النائم من أحلام .

وكان الحكام فى إسبرطة ينامون عادة فى معبد خاص

اعتقاداً منهم أنهم يرون الرؤى الصادقة إذا ناموا فى ذلك المعبد . وكان لهذه الرؤى أثرها المباشر فى تسيير الأمور وتوجية سياسة إسبرطة . وقد بلغ من اعتقاد أهل أثينا فى الرؤى أن محكمتهم العليا كانت تأخذ بما تقرر الرؤيا من إدانة المتهمين أو تبرئتهم كذلك كان أهل روما يستجيبون لما تشير به الرؤى . وهكذا كانت الأحلام من الأمور التى شغلت بال الناس فى مختلف الشعوب منذ القدم كما كان التسليم بالرؤيا الصادقة جزءاً من عقيدة أكثر المتعلمين والجهال على حد سواء حتى الوقت الحاضر.

ومما يتصل بهذا الموضوع إدراك المجانين والمصروعين للغيب وقد قالوا فى تعليل ذلك أن نفوس المجانين ضعيفة التعلق بالبدن لفساد أمزجتهم فى أغلب الأحوال ولضعف الروح الحيوانى فيها وبذلك تكون غير مستغرقة فى الحواس ولا منصرفة إلى التفكير فى نقصها ولذلك فالمجنون يكون كالمبهوت الغافل عما يرى ويسمع ومثل هذا قد ينكشف له من الجواهر الروحانية شىء من الغيب فيجرى على لسانه وهو فيما يشبه الذهول .

ومن هؤلاء أيضاً المرضى والمشرفين على الموت فقد يذكر المريض أنه يرى ويسمع أشياء ولا شىء من ذلك فى واقع الحس وقد ردوا هذا إلى فعل المخيلة على اعتبار أنها مصدر الصور

الباطنة . وذكر الأطباء أن بعض المرضى يخبر بالغيب وبالأمور قبل وقوعها فيصدق قوله .

ويذكرون أن القتلى عند ما يشرفون على الموت يلقون أنباء تتصل بعالم الغيب . ويقال إن بعض الملوك الظلمة قد قتلوا بعض المساجين ليتعرفوا من كلا مهم إبان قتلهم على ما خفى عليهم وقد أنبأهم هؤلاء بما يثير الدهشة .

والمعروف على سبيل التحقيق أن الموت متى نزل بالبدن ذهب الحس وزال حجابه واطلعت النفس على ذاتها وعالمها وبذلك تطلع النفس على عالم الغيب . وليس عجيباً أن يؤدى الموت إلى كشف الغيب فإن من يموت ، يتحول من عالم الملك والشهادة إلى عالم الغيب والملكوت فلا يرى بعينه الظاهرة بل يرى بالعين التى خلقت فى كل قلب وليس يمنع إبصارها إلا غشاء الشهوات . وبين القلب واللوح المحفوظ الذى نقش فيه كل ما قضى الله إلى يوم القيامة يقوم حجاب قد ينكشف فى المنام أو اليقظة ولكن تمام ارتفاع هذا الحجاب إنما يكون بالموت كما يقول الغزالى فى كتابه كيمياء السعادة .

الفصل السابع

موقف الفلاسفة من التنبؤ بالغيب

لقد سلم معظم الفلاسفة الأقدمين بالتنبؤ بالغيب وإن تفاوت تسليمهم قوة وضعفاً مع استثناء الفيلسوف اليونانى أكسانوفان فهو الوحيد الذى أنكر التكهن بحذافيره مع تسليمه بوجود الآلهة . فقد كان الفيلسوف سقراط يعتقد بأنه يعمل ويتكلم تحت تأثير إلهام إلهى . وكان على يقين من أن إلهاً خيراً يعين الناس حين يكونوا فى شك من أمر المستقبل ، فالإنسان لا يستطيع بعقله وحده أن يعرف على وجه الدقة الاتجاه أو التصرف الذى يحسن التزامه . لذلك كان سقراط يؤنب الذين يعملون بغير ما تنذر به الآلهة ويحض أصدقاءه على استشارة الوحى ولا سيما وحى دلفى . ومن هذا نرى أن سقراط كان يتشيع للتكهن أو يرى بتعبير أدق أن من واجب المرء أن يستشير الآلهة فى الحالات الجدية الخطيرة أما فى الأمور التى يستطيع المرء أن يحكم عليها حكماً مسبباً قائماً على العلل التى تبرره فإن سقراط يرى أن استشارة الوحى فى مثل هذه الحالات أمر يخالف العقل .

أما أفلاطون فقد كان فن التكهن عنده أجمل الفنون جميعاً وقد وردت فى كتبه كثير من الفقرات التى تقرر اعتقاده فى التكهن بالغيب . وكان من رأى أفلاطون أن القوانين الجميلة المقررة لا ينبغى الإقدام على تغييرها ، فإن كان من الضرورى إجراء تغيير فيها وجب ألا يقدم المشرع على هذا إلا بعد أن يستشير جميع الحكام وكافة أفراد الشعب وكل أنواع الوحى حتى إذا وافقوا على التغيير جميعاً جاز الإقدام عليه .

وقد ظفر التكهن بالغيب بمكان مرموق فى الدولة أيام أفلاطون وقد عرض لبيان هذا فى كتبه النواميس والجمهورية والمائدة وطيماوس التى يعرض فيها نظرية التكهن عن طريق الإلهام الإلهى مستخدماً لغة الصوفية فى اشتراط هدوء النفس التام وتعطل الفكر بالنوم وصقله بالمرض أو بحالة الجذب التى تعترى الإنسان .

أما الفيلسوف أرسطو فكان يعتبر التكهن بالغيب الذى يقوم على مشاهدة الشواهد الظاهرة وفن العيافة وملاحظة الطيور كلها غير خليقة باهتمام الفلاسفة . إن فلسفة أرسطو تستبعد بوجه عام كل ما فوق الطبيعة وإن كان يرى أن من الممكن أن نصل بشأن المستقبل إلى تخمينات وأن نبنى آمالا ، ومن

هنا كان فى الإمكان قيام علم للأمل الممكن وهو يريد أن يستبدل بالتكهن نوعاً من التنبؤ المعلل الذى يقوم على أسباب ويستند إلى الاستقراء وحساب الاحتمالات . أما عن التنبؤ فى الأحلام فقد وضع عنه بحثاً قال فيه أنه لا يسهل علينا احتقار هذا النوع من التنبؤ ولا الاعتقاد فى صحته . أما الرواقيون فقد تولوا الدفاع عن كافة ضروب التكهن بالغيب على وجه التقريب.

وكان فيثاغورس يميل إلى أن يعرف بين الناس بأنه من أهل العيافة . ويدل موقف ديمقريطس إزاء التكهن على إسرافه فى الاهتمام بالصفة الآلية فى مذهبه فليس ثمة شيء عنده إلا الجوهر الفرد والخلاء وكل ما هو موجود وكل ما يقع ينبغى أن يفسر باتصال الجواهر الفردة . وهذه الذرات لا تخضع لغير القوانين الآلية . وقد كان يرى وجود كائنات أعلى من الإنسان وأوفر منه حظاً فى القدرة وأطول منه أجلا تتألف من جواهر فردة إلا أنها جواهر لطيفة جداً تتحرك فى الفضاء بسرعة خارقة . كانت تسمى فى بعض الأحايين بالجن سواء أكانت خيرة أم شريرة . وكانت تلقى صوراً تراها أعين الناس وأصواتاً تصل إلى أذهانهم وبهذا يمكن تكشف المستقبل .

وإذا كانت حواسنا إبان النوم منصرفة عن إدراك الأشياء

المحيطة بنا فإن الأحلام تحمل أنباء المستقبل . وفى بعض الحالات يمكن لبعض الناس الذين يعتريهم الجذب أن تتهيأ لهم رؤى أو أصوات تفد عن كائنات أكمل منها تكويناً . وإن كانت هذه الصور التى تبعث بها الجن قد يشوبها تقلب الهواء وسقوط الأوراق مما يجعل النبوءات فى فصل الخريف كثيرة الأخطاء .

أما الذى عليه رأى أكثر الفلاسفة المسلمين فهو أن الله وحده هو علام الغيوب ولكن ليس معنى استئثاره بالغيب حرمان البشر كافة من القدرة على معرفة الغيب : بل إن الله يهب لمن يشاء من عباده معرفة الغيب أو هى فطرة يجعلها فى صفوة المؤمنين ممن فطروا على الرجوع عن عالم الحس إلى عالم الروح .

فالله تعالى وإن استأثر بعلم الغيب إلا أنه يهب رسله القدرة على إدراك بعض نواحيه فيكون إدراكهم من خصائص النبوة . وقد يصل بعض المؤمنين إلى مرتبة تدنو من مرتبة الأنبياء فينكشف عنهم الحجاب ويدركون شيئاً من علم الغيب . وهناك غير هؤلاء فئة ثالثة كان لهم من سلامة الفطرة أو معالجة النفس بأنواع الرياضة أو حلول مرض يصرف قوى النفس عن الاهتمام بشهوات الجسد أو نحو ذلك فيدركون شيئا من علم الغيب .

والسبب فى هذه القدرة على إدراك الغيب تحرر النفس من علائق البدن وانصراف المزاج عن موارد الحس فليس يمنع النفس من تعقل المدارك الغيبية إلا انغماسها فى البدن والحواس فإذا ما تجردت من هذه المحسوسات تطلعت إلى الذوات التى فوقها فى الملأ الأعلى لما بين أفقها وأفقهم من وجوه الاتصال فتقتبس النفس منها علما ومعرفة وعلى هذا جاز وقوع العلم بالغيب لمن استطاعوا أن يزيلوا حجاب الحس فى يقظة أو منام .

والقرآن الكريم قد حصر العلم بالغيب فى الله وحده قال تعالى : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو » وكرر هذا المعنى فى أكثر من آية ولكن الله يطلع على غيبه من يجتبيه من رسله : « وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله ما يشاء » . ويقول تعالى كذلك « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحد إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم » .

ويتضح من هذه الآيات أن الله وحده هو العالم بالغيب وأنه يجتبى من رسله من يطلعه على الغيب . ولكن أهل السنة يرون أيضاً أنه فى الإمكان إطلاع غير الرسل على الغيب إطلاعاً لا يفيد أكمل مراتب العلم أو قصر إطلاعهم على بعض

ميادين الغيب وبذلك فرقوا بين اطلاع الرسول واطلاع غيره من صفوة المؤمنين .

ولقد أفاض ابن خلدون فى مقدمته الكلام عن المدركات الغيبية ويعتبر كلامه أنموذجاً للتفكير الإسلامى فى هذه الناحية لذلك رأينا أن نختتم هذا الكتاب بخلاصة ما ذكره ابن خلدون فى هذا الموضوع على النحو التالى .

« إننا نجد فى النوع الإنسانى أشخاصاً يخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعة فهم يتميز بها صنفهم عن سائر الناس . ولا يرجعون فى ذلك إلى صناعة ولا يستدلون عليه بأثر من النجوم ولا غيرها ، إنما نجد مداركهم فى ذلك بمقتضى فطرتهم التى فطروا عليها ، وذلك مثل العرافين والناظرين فى الأجسام الشفافة كالمرايا وطساس الماء ؛ والناظرين فى قلوب الحيوانات وأكبادها وعظامها ، وأهل الزجر فى الطير والسباع . وأهل الطرق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى ، وهذه كلها موجودة فى عالم الإنسان لا يسع أحداً جحدها ولا إنكارها وكذلك المجانين يلقى على ألسنتهم كلمات من الغيب فيخبرون بها ، وكذلك النائم والميت لأول موته أو نومه يتكلم بالغيب ، وكذلك أهل الرياضيات من المتصوفة لهم مدارك فى الغيب على

سبيل الكرامة معروفة . فالنفس الإنسانية ذات روحانية موجودة بالقوة بين سائر الروحانيات وإنما تخرج من القوة إلى الفعل بالبدن وأحواله وهذا أمر مدرك لكل أحد ، وكل ما بالقوة فله مادة وصورة ؛ وصورة هذه النفس التى بها يتم وجودها هو عين الإدراك والتعقل فهى توجد أولا بالقوة مستعدة للإدراك وقبول الصور الكلية والجزئية ثم يتم نشؤها ووجودها بالفعل بمصاحبة البدن وما يعودها بوجود مدركاتها المحسوسة عليها ، وما تنتزع من تلك الإدراكات من المعانى الكلية فتتعقل الصورة مرة بعد أخرى حتى يحصل لها الإدراك والتعقل طوراً بالفعل فتتم ذاتها وتبقى النفس كالهيولى والصور متعاقبة عليها بالإدراك واحدة بعد واحدة . ولذلك نجد الصبى فى أول نشأته لا يقدر على الإدراك التى لها من ذاتها لابنوم ولا بكشف ولا بغيرها وذلك لأن صورتها التى هى عين ذاتها وهى الإدراك والتعقل لم يتم بعد ، بل لم يتم لها انتزاع الكليات ، ثم إذا تمت ذاتها بالفعل حصل لها ما دامت مع البدن نوعان من الإدراك : إدراك بآلات الجسم تؤديه إليها المدارك البدنية وإدراك بذاتها من غير واسطة ، وهى محجوبة عنه بالانغماس فى البدن والحواس وبشواغلها لأن الحواس أبداً جاذبة لها إلى الظاهر بما فطرت

عليه أولا من الإدراك الجسمانى ، وربما تنغمس من الظاهر إلى الباطن فيرتفع حجاب البدن لحظة إما بالخاصية التى للإنسان على الإطلاق مثل النوم أو بالخاصية الموجودة لبعض البشر مثل الكهانة والطرق ، أو بالرياضة مثل الصوفية : فتلتفت حينئذ إلى الذوات التى فوقها من الملأ الأعلى لما بين أفقها وأفقهم من الاتصال فى الوجود ، وتلك الذوات روحانية وهى إدراك محض وعقول بالفعل وفيها صور الموجودات وحقائقها فيتجلى فيها شىء من تلك الصور وتقتبس منها علوماً ، وربما رفعت تلك الصور المدركة إلى الخيال فيصرفه فى القوالب المعتادة ، ثم يراجع الحس ما أدركت إما مجرداً أو فى قوالبه فتخبر به . وهذا هو شرح استعداد النفس لهذا الإدراك الغيبى .

ولبيان أصنافه نقول إن الناظرين فى الأجسام الشفافة من المرايا وطساس المياه وقلوب الحيوان وأكبادها وعظامها وأهل الطرق بالحصى والنوى فكلهم من قبيل الكهان إلا أنهم أضعف رتبة فيه فى أصل خلقهم لأن الكاهن لا يحتاج فى رفع حجاب الحس إلى كثير معاناه ، وهؤلاء يعانونه بانحصار المدارك الحسية كلها فى نوع واحد منها ، وأشرفها البصر فيعكف على المرئى البسيط حتى يبدو له مدركه الذى يخبر به عنه . وربما

يظن أن مشاهدة هؤلاء لما يرونه هو فى سطح المرآة وليس كذلك
بل لا يزالون ينظرون فى سطح المرآة إلى أن يغيب عن البصر ،
ويبدو فيما بينهم وبين سطح المرآة حجاب كأنه غمام يتمثل فيه
صور هى مداركهم فيشيرون إليهم بالمقصود لما يتوجهون إلى
معرفته من نفى أو إثبات فيخبرون بذلك على نحو ما أدركوه .
أما المرآة وما يدرك فيها من الصور فلا يدركونه فى تلك الحال
وإنما ينشأ لهم بها من هذا النوع الآخر من الإدراك وهو نفسانى
ليس من إدراك البصر بل يتشكل به المدرك النفسانى للحس .
ومثل ذلك ما يعرض للناظرين فى قلوب الحيوانات وأكبادها
وللناظرين فى الماء والطساس وأمثال ذلك . وقد شاهدنا من هؤلاء
من يشغل الحس بالبخور فقط ثم بالعزائم للاستعداد . ثم
يخبر كما أدرك ويزعمون أنهم يرون الصور متشخصة فى
الهواء تحكى لهم أحوال ما يتوجهون إلى إدراكه بالمثال والإشارة .
وغيبة هؤلاء عن الحس أخف من الأولين .

أما العرافون منهم المتعلقون بهذا الإدراك ، وليس
الاتصال — فيسلطون الفكر على الأمر الذى يتوجهون إليه ويحدسون
فيه بالظن والتخمين بناء على ما يتوهمونه من مبادىء ذلك الاتصال
والإدراك ويدعون بذلك معرفة الغيب وليس منه على الحقيقة .